# تيسير اللطيف المنان

في

## خلاصة تفسير القرآن


تأليف

العالم العلامة الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي

١٣٠٧ هـ - ١٣٧٦ هـ



مكتبة الرشد

ناشرون

مكتبة الرشد ناشرون

* المملكة العربية السعودية - الرياض - طريق الحجاز
ص ب ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ هاتف ٤٥٩٣٤٥١ فاكس ٤٥٧٣٣٨١
E-MAIL: alrushd@suhuf.net.sa
www.alrushd.com

* فرع مكة المكرمة: - هاتف ٥٥٨٥٤٠١ - ٥٥٨٣٥٠٦
* فرع المدينة المنورة: - شارع أبي ذر الغفاري - هاتف ٨٣٤٠٦٠٠
* فرع القصيم بريدة طريق المدينة - هاتف ٣٢٤٢٢١٤
* فرع أبها: - شارع الملك فيصل هاتف ٢٣١٧٣٠٧
* فرع الدمام: - شارع ابن خلدون - هاتف ٨٢٨٢١٧٥

وكلاؤنا في الخارج

* الكويت: - مكتبة الرشد - حولي - هاتف: ٢٦١٢٣٤٧
* القاهرة: - مكتبة الرشد - مدينة نصر - هاتف: ٢٧٤٤٦٠٥

# ترجمة علامة القصيم الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي

## بقلم أحد تلامذته[(١)]

هو العلامة الورع الزاهد تذكرة السلف الشيخ عبد الرحمن بن ناصر ابن عبد اللَّه آل سعدي التميمي الحنبلي.

**مولده:**

ولد في مدينة عنيزة بالقصيم سنة **١٣٠٧** من الهجرة وتوفيت أمه وله أربع سنين ثم توفي والده سنة **١٣١٤** هـ وهو في الثامنة من عمره وعطفت عليه زوجة والده وصارت تشفق عليه أشد من شفقها على أولادها وكذلك أخوه حمد عطف عليه فنشأ الشيخ نشأة حسنة فدخل مدرسة تحفيظ القرآن فحفظه وهو في الحادية عشرة من عمره وحفظه عن ظهر قلب وهو في الرابعة عشرة من عمره.

**مشايخه:**

بعد حفظه القرآن نظرًا وعن ظهر قلب اشتغل بطلب العلم فقرأ على إبراهيم بن حمد بن جاسر في الحديث، وقرأ على محمد بن عبد الكريم الشبل في الفقه والنحو، وقرأ على الشيخ صالح بن عثمان قاضي عنيزة في التوحيد والتفسير والفقه وأصوله والنحو وهو أكثر من قرأ عليه

(١) مأخوذة من كتاب «المختارات الجلية» للمؤلف طبع «المؤسسة السعيدية» مع بعض الإضافات.

حيث لازمه ملازمة تامة حتى توفي وقرأ على الشيخ عبد اللّه بن عائض وعلى الشيخ صعب بن عبد اللّه التويجري وعلى الشيخ علي السناني والشيخ علي بن ناصر أبي وادي قرأ عليه في الحديث والأمهات الست وأجازه في ذلك وقرأ على الشيخ محمد الشنقيطي نزيل الحجاز قديمًا ثم بلدة الزبير قرأ عليه في التفسير والحديث ومصطلح الحديث أثناء إقامة الشنقيطي بمدينة عنيزة.

**جلوسه للتدريس:**

ولما بلغ من العمر ثلاثًا وعشرين سنة جلس للتدريس وكان يتعلم ويعلم ويقضي أوقاته في ذلك وفي الإكباب على مطالعة مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ومؤلفات تلميذه ابن القيم بتمعن وتفهم فانتفع بهذه المؤلفات غاية الانتفاع.

وفي عام ١٣٥٠ من الهجرة انتهت إليه المعرفة التامة ورئاسة العلم في القصيم فاشتهر علمه وارتفع قدره فأقبل أهل ناحية القصيم على القراءة عليه وتلقي العلوم والمعارف عنه.

**تلامذته:**

أخذ عنه العلم خلق كثير أعرف منهم هؤلاء المذكورين أدناه:

١- الشيخ سليمان بن إبراهيم البسام درس في المعهد العلمي وعين قاضيًا فرفض.

٢- الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع تولى القضاء في المجمعة ثم في عنيزة.

٣- الشيخ عبد اللَّه بن عبد الرحمن البسام عضو هيئة التمييز في المنطقة الغربية وعضو هيئة كبار العلماء.

٤- الشيخ محمد المنصور الزامل درس بمعهد عنيزة العلمي.

٥- الشيخ علي بن محمد الزامل مدرسًا في معهد عنيزة وهو أنحى أهل نجد في زمنه.

٦- الشيخ محمد بن صالح العثيمين أستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم وخليفة شيخه على إمامة الجامع بعنيزة، وعضو هيئة كبار العلماء.

٧- الشيخ عبد اللَّه بن عبد العزيز بن عقيل عضو الإفتاء ورئيس الهيئة العلمية المستقلة بعد وفاة سماحة رئيس القضاة.

٨- الشيخ عبد اللَّه المحمد العوهلي درس بالمعهد العلمي بمكة المكرمة.

٩- الشيخ عبد اللَّه بن حسن آل بريكان درس بالمعهد العلمي بعنيزة.

وله رحمه اللَّه تلاميذ غير هؤلاء كثيرون لم يتسن لي معرفتهم.

**مؤلفاته:**

ألف مؤلفات كثيرة نافعة نذكر منها ما يأتي:

١- تفسير القرآن الكريم المسمى: «تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن» ثمانية مجلدات وقد فرغ من إكمال تأليفه عام ١٣٤٤هـ طبع في المطبعة السلفية بمصر.

٢- حاشية على الفقه استدراكًا على جميع الكتب المتداولة والمؤلفة في المذهب الحنبلي.

٣- إرشاد أولي البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب مرتبة على طريقة السؤال والجواب.

طبع بمطبعة الترقي في دمشق عام ١٣٦٥هـ على نفقة المؤلف ووزعه مجانًا.

٤- تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله.

طبع في مطبعة دار إحياء الكتاب العربي على نفقة وجيه الحجاز «الشيخ محمد أفندي نصيف» عام ١٣٦٦هـ.

٥- الدرة المختصرة في محاسن الإسلام.

طبع في مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦هـ.

٦- الخطب العصرية طبع في مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦هـ.

٧- القواعد الحسان في تفسير القرآن.

طبعها في مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦هـ.

٨- الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين، وهو توضيح لنونية الإمام ابن القيم رحمه اللَّه.

طبع بالمطبعة السلفية بمصر.

٩- توضيح الكافية الشافية.

طبع بالمطبعة السلفية بمصر.

١٠- وجوب التعاون بين المسلمين وموضوع الجهاد الديني.

طبع بالمطبعة السلفية بمصر على نفقة المؤلف.

١١- القول السديد في مقاصد التوحيد.

طبع في مصر «مطبعة الإمام» على نفقة عبد المحسن أبا بطين عام ١٣٦٧ هـ.

١٢- منهج السالكين مختصر في أصول الفقه.

١٣- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن.

طبع بمطبعة الإمام بمصر عام ١٣٦٨ هـ على نفقة المؤلف وجماعة من المحسنين.

١٤- الرياض الناضرة.

١٥- بهجة قلوب الأبرار.

١٦- الإرشاد إلى معرفة الأحكام.

١٧- الفواكه الشهية في الخطب المنبرية.

١٨- منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين.

١٩- طريق الوصول إلى علم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول.

٢٠- الدين الصحيح يحل جميع المشاكل.

٢١- الفروق والتقاسيم البديعة النافعة.

٢٢- الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين.

٢٣- فوائد مستنبطة.

٢٤- الوسائل المفيدة.

٢٥- شروح شيخ الإسلام ابن تيمية التي رد بها على القدرية.

٢٦- الفتاوى السعدية.

٢٧- التوضيح والبيان لشجرة الإيمان.

٢٨- فتح الرب الحميد في أصول العقائد والتوحيد.

٢٩- الدلائل القرآنية.

٣٠- التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه الواسطية في المباحث المنيفة.

٣١- سؤال وجواب بأهم المهمات.

مرضه:

أصيب عام ١٣٧١ هـ بمرض ضغط الدم وضيق الشرايين وكانت أعراضه تبدو بعض الساعات في الكلام فيقف ولو كان يقرأ القرآن ثم يتكلم ويرجع كعادته فسافر إلى لبنان عام ١٣٧٢هـ على نفقة الحكومة السعودية أيدها اللَّه وبقي في لبنان شهرًا يعالج وشفاه اللَّه.

وبعد أن رجع إلى مدينة عنيزة باشر أعماله التي كان يباشرها قبل مرضه من تدريس وإفتاء وتصنيف وخطابة جمعة وإمامة فعاوده المرض فلما كان في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٧٦هـ أحس بالذي فيه وكان معه مثل البرد والقشعريرة وفي ليلة الأربعاء ٢٢ من الشهر المذكور عام ١٣٧٦هـ بعد فراغه من الدرس المعتاد الذي يشبه محاضرة من المحاضرات والذي كان يقوم بإلقائه على الجماعة في المسجد بعد فراغه من الدرس أحس بثقل وضعف حركة وبعد الصلاة وفراغها أشار إلى بعض تلامذته أن يمسك بيده ويذهب معه إلى داره ففعل فهرع معه أناس من الحاضرين فلم يصل إلى داره إلا وقد أغمي عليه وبعد ذلك أفاق رحمه اللَّه وأثنى على اللَّه وحمده وتكلم مع الحاضرين بكلام حسن طيب ثم عاوده الإغماء فلم يتكلم بعد ذاك فلما أصبحوا صباح الأربعاء دعوا الطبيب فقرر أنه نزيف في المخ وإن لم يتدارك فورًا فإنه يموت فأبرقوا إلى جلالة الملك.

فأصدر أمره الكريم عاجلًا بكل ما يلزم فقامت الطائرة فورًا وفيها مهرة من الأطباء والعلاجات إلى مدينة عنيزة ولكن الجو كان ملبدًا بالغيوم والرعد والبرق والعواصف الشديدة فلم تستطع الطائرة الهبوط على أرض المطار فتوفي رحمه اللَّه فجر يوم الخميس الموافق ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٦هـ فأصيب الناس لموته فانهمرت الدموع ووجفت القلوب وصلى عليه الناس بعد صلاة ظهر يوم الخميس في حشد عظيم لم يشهد في عنيزة له مثيل فامتلأ الجامع بالمصلين والمشيعين وانهمرت العيون بالدموع وانطلقت الألسن بالترحم عليه والدعاء له بالمغفرة

والرضوان فلما صلي عليه حملوه فوق الأعناق بزحام شديد إلى مقبرة الشهوانية المعروفة بمدينة عنيزة.

فبعد ذلك هتفت التعازي بالبرقيات من المعزين من جميع الجهات ورثي بمراث كثيرة يصعب عدها وخلف ثلاثة أبناء، هم: عبد اللَّه ومحمد وأحمد، غفر اللَّه للشيخ المترجم له عبد الرحمن بن سعدي ورحمه وعفا عنه فإنه كان من العلماء الورعين وصلى اللَّه على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى اللَّه عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد فقد كنت كتبت كتابًا في تفسير القرآن مبسوطًا مطولًا يمنع القراء من الاستمرار بقراءته، ويفتر العزم عن نشره، فأشار علي بعض العارفين الناصحين أن أكتب كتابًا غير مطول يحتوي على خلاصة ذلك التفسير، ونقتصر فيه على الكلام على بعض الآيات التي نختارها وننتقيها من جميع مواضيع علوم القرآن ومقاصده، فاستعنت اللَّه على العمل على هذا الرأي الميمون لأمور كثيرة.

**منها**: أنه بذلك يكون متيسرًا على المشتغلين، معينًا للقارئين.

**ومنها**: أن القرآن العظيم ليس كغيره من الكتب في الترتيب والتبويب؛ لأنه بلغ في البلاغة نهايتها، وفي الحسن غايته، وفي الأسلوب البديع، والتأثير العجيب ما هو أكبر الأدلة على أنه كلام اللَّه وتنزيل من حكيم حميد، فتجده في آية واحدة يجمع بين الوسائل والمقاصد، وبين الدليل والمدلول، وبين الترغيب والترهيب وبين العلوم الأصولية والفروعية، وبين العلوم الدنيوية والأخروية، وبين الأغراض المتعددة والمقاصد النافعة، ويعيد المعاني النافعة على العباد؛

ليتم علمهم، وتكمل هدايتهم، ويستقيم سيرهم على الصراط المستقيم، علمًا وعملًا .

فالوقوف على تفسير بعض القرآن يعين أعظم عون على معرفة باقيه، والله جعله مثاني تثنى فيه العلوم النافعة، والمعاني الجليلة الكاملة، وهذا من تيسيره تعالى لكتابه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

ومما يدعو إلى هذا ما تحتوي عليه هذه المقدمة المذكورة بقولنا.

* * *

## مقدمة

# في ذكر أوصاف القرآن العامة الجامعة

قد وصف اللَّه كتابه بأوصاف جليلة عظيمة تنطبق على جميعه، وتدل أكبر دلالة على أنه الأصل والأساس لجميع العلوم النافعة، والفنون المرشدة لخير الدنيا والآخرة.

وصفه بـ « الهدى » و« الرشد » و« الفرقان » وأنه « مبين » و« تبيان لكل شيء »، فهو في نفسه هدى، ويهدي الخلق لجميع ما يحتاجونه من أمور دينهم ودنياهم، ويرشدهم إلى كل طريق نافع، ويفرق لهم بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وبين أهل السعادة والشقاوة بذكر أوصاف الفريقين، وفيه بيان الأصول والفروع بذكر أدلتها النقلية والعقلية، فوصفه بهذه الأوصاف المطلقة العامة التي لا يشذ عنها شيء في آيات كثيرة.

وقيد هدايته في بعض الآيات بعدة قيود: قيد هدايته بأنه هدى للمؤمنين، المتقين، لقوم يعقلون، ويتفكرون، ولمن قصده الحق. وهذا بيان منه تعالى لشرط هدايته، وهو أن المحل لابد أن يكون قابلًا وعاملًا، فلابد لهدايته من عقل وتفكير وتدبر لآياته، فالمعرض الذي لا يتفكر ولا يتدبر آياته لا ينتفع به، ومن ليس قصده الحق ولا غرض له في الرشاد، بل قصده فاسد وقد وطن نفسه على مقاومته ومعارضته ليس له من هدايته نصيب، فالأول حرم هدايته لفقد الشرط والثاني

لوجود المانع، فأما من أقبل عليه وتفكر في معانيه وتدبرها بحسن فهم، وحسن قصد، وسلم من الهوى فإنه يهتدي به إلى كل مطلوب، وينال به كل غاية جليلة ومرغوب.

ووصفه بأنه « رحمة » وهي الخير الديني والدنيوي والأخروي المترتب على الاهتداء بالقرآن، فكل من كان أعظم اهتداء به فله من الرحمة والخير والسعادة والفلاح بحسب ذلك.

ووصفه بأنه « نور »؛ وذلك لبيانه وتوضيحه العلوم النافعة، والمعاني الكاملة، وأن به يخرج العبد من جميع الظلمات: ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والشقاء إلى نور العلم واليقين والإيمان والطاعة والرشاد المتنوع.

ووصفه بأنه « شفاء لما في الصدور » وذلك يشمل جميع أمراض القلوب، فهو يوضح أمراض القلوب، ويشخصها، ويرشد العباد إلى كل وسيلة يحصل بها زوالها وشفاؤها، فيذكر لهم أمراض الجهل والشكوك والحيرة وأسباب ذلك، ويرشدهم إلى قلعها بالعلوم النافعة واليقين الصادق، وسلوك الطرق الصحيحة المزيلة لهذه العلل، ويذكر لهم أمراض الشهوات والغي، ويبين لهم أسبابها وعلاماتها وآثارها الضارة، ويذكر لهم ما به تعالج من المواعظ والتذكر والترغيب والترهيب، والمقابلة بين الأمور وترجيح ما ترجحت مصلحته العاجلة والآجلة.

ووصفه بأنه « كله محكم، وكله متشابه في الحسن، وبعضه متشابه من وجه محكم من وجه آخر » فأما وصفه في عدة آيات أنه كله محكم، فلبلاغته وبيانه التام واشتماله على غاية الحكمة في تنزيل الأمور

منازلها، ووضعها مواضعها، وأنه متفق غير مختلف، ليس فيه اختلاف ولا تناقض بوجه من الوجوه.

وأما حسنه فلما فيه من البيان التام لجميع الحقائق، ولأنه بين أحسن المعاني النافعة في العقائد والأخلاق والآداب والأعمال، فهي في غاية الحسن لفظًا ومعنى، وآثارها أحسن الآثار، وكل هذه المعاني المثناة في القرآن يشهد بعضها لبعض في الحسن والكمال، ويصدق بعضها بعضًا.

وأما وصفه بأن منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات، فالمتشابهات هي التي يقع الإشكال في دلالتها لسبب من الأسباب اللفظية والعبارات المركبة، فأمر اللّه بردها إلى المحكمات الواضحة بينة المعاني التي هي نص في المراد، فإذا ردت المتشابهات إلى المحكمات صارت كلها محكمات، وزال الشك والإشكال، وحصل البيان للهدى من الضلال.

ووصفه بأنه كله «صلاح ويهدي إلى الإصلاح» وإلى أقوم الأمور وأرشدها في كل شيء من دون استثناء، وهذا الوصف المحيط لا يخرج عنه شيء، فهو إصلاح للعقائد والقلوب، وللأخلاق والأعمال، ويهدي إلى كل صلاح ديني ودنيوي بحيث تقوم به الأمور، وتعتدل به الأحوال، ويحصل به الكمال المتنوع من كل وجه بالإرشاد إلى كل وسيلة نافعة تؤدي إلى المقاصد والغايات المطلوبة، فلا سبيل إلى الهداية والصلاح والإصلاح لجميع الأمور إلا بسلوك الطرق التي أرشد إليها القرآن، وحث العباد عليها.

فمتى عرفت أن القرآن العظيم موصوف كله بهذه الأوصاف التي هي أعلى الأوصاف وأكملها وأتمها وأنفعها للعباد، وأنه أعيدت فيه هذه المعاني الجليلة ومزجت فيه مزجًا عجيبًا غريبًا في كماله وحسنه، فهمت أن طالب العلم إذا وقف على تفسير بعض الآيات تدرب بها وتوصل بها إلى معرفة بقية الآيات.

لهذه الأسباب وغيرها رأينا أن المصلحة تدعو إلى الاقتصار على خلاصة ذلك التفسير، راجين من الرب أن يتم نعمته وأن يحصل به المقصود، ورأينا أن الأحسن أن نذكر كل موضوع على حدته لما فيه من التقريب والسهولة وجمع المعاني التي من فن واحد في موضع واحد، مع أنه كما تقدم لابد أن يدخل في آيات الأصول كثير من الفروع، وفي آيات الفروع كثير من الأصول، ويدخل فيها من الترغيب والترهيب والقصص شيء كثير، وهذا المزج العجيب من كمال القرآن وعظم تأثيره فإنه كتاب تعليم يزيل الجهالات المتنوعة، وكتاب تربية يقوم الأخلاق والأعمال، فهو يُعلم ويقوم ويهذب ويؤدب بأعلى ما يكون من الطرق التي لا يمكن للحكماء والعقلاء أن يقترحوا مثلها ولا ما يقاربها.

* * *

## علوم التوحيد والعقائد والأصول

١ - ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة] أي أبتدئ بكل اسم للَّه تعالى؛ لأن لفظ «اسم» مفرد مضاف فيعم جميع أسماء اللَّه الحسنى فيكون العبد مستعينًا بربه وبكل اسم من أسمائه على ما يناسبه من المطالب، وأجل ما يستعان به على عبادة اللَّه، وأجل ذلك الاستعانة على قراءة كلام اللَّه، وتفهم معانيه، والاهتداء بهديه.

﴿اللَّهِ﴾ هو المألوه المستحق لإفراده بالمحبة والخوف والرجاء وأنواع العبادة كلها لما اتصف به من صفات الكمال، وهي التي تدعو الخلق إلى عبادته والتأله له ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل مخلوق، وكتب الرحمة الكاملة للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، هؤلاء لهم الرحمة المطلقة المتصلة بالسعادة الأبدية، ومن عداهم محروم من هذه الرحمة الكاملة؛ لأنه هو الذي دفع هذه الرحمة وأباها بتكذيبه للخبر، وتوليه عن الأمر، فلا يلومن إلا نفسه .

**واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها** ما دل عليه الكتاب والسنة من الإيمان بأسماء اللَّه كلها، وصفاته جميعها، وبأحكام

تلك الصفات، فيؤمنون مثلًا بأنه رحمن رحيم ذو الرحمة العظيمة التي اتصف بها المتعلقة بالمرحوم، فالنعم كلها من آثار رحمته، وهكذا يقال في سائر الأسماء الحسنى، فيقال: عليم ذو علم عظيم يعلم به كل شيء، قدير ذو قدرة يقدر على كل شيء، فإن اللَّه قد أثبت لنفسه الأسماء الحسنى، والصفات العليا، وأحكام تلك الصفات، فمن أثبت شيئًا منها ونفى الآخر، كان مع مخالفته للنقل والعقل متناقضًا مبطلًا.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد هو الثناء على اللَّه بصفات الكمال وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل المشتملة على الحكمة التامة، ولابد في تمام حمد الحامد من اقتران محبة الحامد لربه وخضوعه له، فالثناء المجرد من محبة وخضوع ليس حمدًا كاملًا.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الرب هو المربي جميع العالمين بكل أنواع التربية، فهو الذي خلقهم ورزقهم وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، وهذه التربية العامة لجميع الخلق برهم وفاجرهم بل المكلفين منهم وغيرهم وأما التربية الخاصة لأنبيائه وأوليائه، فإنه مع ذلك يربي إيمانهم فيكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق التي تحول بينهم وبين صلاحهم وسعادتهم الأبدية، وتيسيرهم لليسرى وحفظهم من جميع المكاره، وكما دل ذلك على انفراد الرب بالخلق والتدبير والهداية وكمال الغنى، فإنه يدل على تمام فقر العالمين إليه بكل وجه واعتبار، فيسأله من في السموات والأرض بلسان المقال والحال جميع حاجاتهم ويفزعون إليه في مهماتهم.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ المالك هو من اتصف بالصفات العظيمة الكاملة التي يتحقق بها الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى،

ويثيب ويعاقب، ويتصرف في العالم العلوي والسفلي التصرف التام المطلق بالأحكام القدرية والأحكام الشرعية، وأحكام الجزاء؛ فلهذا أضاف ملكه ليوم الدين مع أنه المالك المطلق في الدنيا والآخرة، فإنه يوم القيامة الذي يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيرها وشرها، ويرتب عليها جزاءها، وتشاهد الخليقة من آثار ملكه وعظمته وسعته، وخضوع الخلائق كلهم لعظمته وكبريائه، واستواء الخلق في ذلك اليوم على اختلاف طبقاتهم في نفوذ أحكامه عليهم ما يعرفون به كمال ملكه وعظمة سلطانه.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ أي: نخصك يا ربنا وحدك بالعبادة والاستعانة فلا نعبد غيرك، ولا نستعين بسواك، فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، فهي القيام بعقائد الإيمان وأخلاقه وأعماله محبة لله وخضوعًا له، والاستعانة هي الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به في حصول ذلك، وهذا التزام من العبد بعبودية ربه، وطلب من ربه أن يعينه على القيام بذلك، وبذلك يتوصل إلى السعادة الأبدية والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل لذلك إلا بالقيام بعبادة الله والاستعانة به، وعلم بذلك شدة افتقار العبد لعبادة الله والاستعانة به.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: دلنا وارشدنا ووفقنا للعلم بالحق والعمل به، الذي هو الصراط المستقيم المعتدل الموصل إلى الله وإلى جنته وكرامته، وهذا يشمل الهداية إلى الصراط، وهي التوفيق للزوم

دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان الباطلة، ويشمل الهداية في الصراط وقت سلوكه علمًا وعملًا، فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد ولهذا أوجبه اللَّه ويسره، وهذا الصراط هو طريق و﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بالنعمة التامة المتصلة بالسعادة الأبدية، وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ وهم الذي عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين ضلوا عن الحق كالنصارى ونحوهم.

**فهذه السورة على إيجازها قد جمعت علومًا جمة تضمنت أنواع التوحيد الثلاثة:** توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وتوحيد الألوهية من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فهو المألوه بعبادته والاستعانة به.

وتوحيد الأسماء والصفات بأن يثبت للَّه صفات الكمال كلها التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ وقد دل على ذلك إثبات الحمد للَّه؛ فإن الأسماء الحسنى والصفات العليا، وأحكامها كلها محامد ومدائح للَّه تعالى، وتضمنت إثبات الرسالة في قوله ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ لأنه الطريق الذي عليه النبي ﷺ، وذلك فرع عن الإيمان بنبوته ورسالته، وتضمنت إثبات الجزاء وإنه بالعدل، وذلك مأخوذ من قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

وتضمنت إثبات مذهب أهل السنة والجماعة في القدر وأن جميع الأشياء بقضاء اللَّه وقدره وأن العبد فاعل حقيقة ليس مجبورًا على أفعاله، وهذا يفهم من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، فلولا

أن مشيئة العبد مضطر فيها إلى إعانة ربه وتوفيقه لم يسأل الاستعانة، وتضمنت أصل الخير ومادته وهو الإخلاص الكامل لله في قول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ولما كانت هذه السورة بهذه العظمة والجلالة أوجبها الشارع على المكلفين في كل ركعة من صلاتهم فرضًا ونفلًا، وفيها تعليم من الله لعباده كيف يحمدونه ويثنون عليه ويمجدونه بمحامده ثم يسألون ربهم جميع مطالبهم، ففيها دليل على افتقارهم إلى ربهم في الأمرين مفتقرين إليه في أن يملأ قلوبهم من محبته ومعرفته، ومفتقرين إليه في أن يقوم بمصالحهم و يوفقهم لخدمته، والحمد لله رب العالمين.

٢- ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

هذه الآية الكريمة لها شأن كبير، كان عليه الصلاة والسلام يقرؤها كثيرًا في الركعة الأولى من سنة الصبح، وقد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به؛ فإن الإيمان الشرعي هو تصديق القلب التام وإقراره بهذه الأصول المتضمنة لأعمال الجوارح ولأعمال القلوب، وهو بهذا الاعتبار يدخل فيه الإسلام وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها، فهي إيمان، وهي من آثار الإيمان، فإذا أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر، وكذلك إذا أطلق الإسلام فإنه يدخل فيه الإيمان فإذا قرن بين الإسلام والإيمان، فسر الإيمان بما في القلوب من العقائد الصحيحة والإرادات الصالحة، وفسر الإسلام بالأعمال الظاهرة.

وكذلك إذا جمع بين الإيمان والعمل الصالح، فالإيمان لما في الباطن، والعمل الصالح هو الظاهر ومع إطلاق الإيمان يدخل فيه العمل الصالح كما في كثير من الآيات، فقوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ إلخ. أي: قولوا ذلك بألسنتكم متواطئة عليها قلوبكم، وهذا هو القول التام الذي يترتب عليه الثواب والجزاء، فكما أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب ليس بإيمان، بل هو نفاق، فكذلك القول الخالي من عمل القلب عديم التأثير قليل الفائدة.

وفي قوله: ﴿قُولُوٓاْ﴾ إشارة إلى الإعلان بالعقيدة والصدع بها والدعوة لها؛ إذ هي أصل الدين وأساسه، وفي مثل قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ وما أشبهها من الآيات التي يضاف الفعل فيها إلى ضمير الجمع إشارة إلى أنه يجب على الأمة الاعتصام بحبل اللَّه جميعًا والحث على الائتلاف والنهي عن الافتراق، وأن المؤمنين كالجسد الواحد عليهم السعي لمصالحهم كلها جميعًا والتناصح التام.

وفيه دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان على وجه التقييد بأن يقول: أنا مؤمن باللَّه كما يقول: آمنت باللَّه، بل هذا الأخير من أوجب الواجبات، كما أمر اللَّه به أمرًا حتمًا بخلاف قول العبد: أنا مؤمن ونحوه، فإنه لا يقال إلا مقرونًا بالمشيئة لما فيه من تزكية النفس لأن الإيمان المطلق يشمل القيام بالواجبات وترك المحرمات، فهو كقوله: أنا متقٍ أو ولي أو من أهل الجنة، وهذا التفريق هو مذهب محققي أهل السنة والجماعة.

فقوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بأنه واجب الوجود، واحد أحد فرد صمد متصف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص مستحق لإفراده بالعبودية كلها، وهو يتضمن الإخلاص التام ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ يدخل فيه الإيمان بألفاظ الكتاب والسنة ومعانيهما، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ٤٤] فيدخل في هذا الإيمان بما تضمنه كتاب اللَّه وسنة رسوله من أسماء اللَّه وصفاته وأفعاله وصفات رسله واليوم الآخر والغيوب كلها والإيمان بما تضمنه الكتاب والسنة أيضًا من الأحكام الشرعية الأمر والنهي وأحكام الجزاء وغير ذلك، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ إلخ. فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء والإيمان بالأنبياء عمومًا، وخصوصًا ما نص عليهم منهم في الآية الكريمة وغيرها لشرفهم ولكونهم أتوا بالشرائع الكبار.

فمن براهين الإسلام ومحاسنه، وأنه دين اللَّه الحق الأمر بالإيمان بكل كتاب أنزله اللَّه وكل رسول أرسله اللَّه مجملًا ومفصلًا، فكل من ادعى أنه على دين حق كاليهود والنصارى ونحوهم فإنهم يتناقضون فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، فيبطل كفرهم وتكذيبهم تصديقهم؛ ولهذا أخبر عنهم أنهم الكافرون حقا، وأنه لا سبيل يسلك إلى اللَّه إلا سبيل الإيمان بجميع الرسل وبجميع الكتب المنزلة على الرسل.

وفي قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ برهان على أن الأنبياء وسائط بين اللَّه وبين خلقه في تبليغ دينه، وأنه ليس لهم من الأمر شيء، وفي الإخبار بأنه من ربهم بيان أن من كمال ربوبيته لعباده التربية التامة

أنه أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ليعلموهم ويزكوهم ويخرجوهم من الظلمات إلى النور، وأنه لا يليق بربوبيته وحكمته أن يتركهم سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون.

ويفهم من الآية الكريمة الفرق بين الأنبياء الصادقين، وبين من يدعي النبوة من الكاذبين فإن الأنبياء يصدق بعضهم بعضًا، ويشهد بعضهم لبعض، ويكون كل ما جاءوا به متفقًا لا يتناقض لأنه من عند اللَّه محكم منتظم، وأما الكذبة فإنهم لابد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم ويعلم كذبهم بمخالفته لما يدعو إليه الأنبياء الصادقون.

فلما بين تعالى جميع ما يجب الإيمان به، عمومًا وخصوصًا، وكان القول لا يغني عن العمل قال: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: خاضعون لعظمته منقادون لعبادته بباطننا وظاهرنا، مخلصون له بذلك فإن تقديم المعمول على العامل يدل على الحصر.

فهذه الأصول المذكورة في هذه الآية قد أمر اللَّه بها في كتابه في عدة آيات من القرآن إجمالًا وتفصيلًا، وأثنى على القائمين بها، وأخبر بما يترتب عليها من الخير والثواب، وأنها تكمل العبد وترقيه في عقائده وأخلاقه وآدابه، وتجعله عدلًا معتبرًا في معاملاته، وتوجب له خير الدنيا والآخرة، ويحيا بها الحياة الطيبة في الدارين، وتجلب له السعادتين، وتدفع عنه شرور الدنيا والآخرة.

وقد أخبر في هذه السورة أن الرسول والمؤمنين قاموا بهذه الأصول علمًا وتصديقًا وإقرارًا وعملًا ودعوة وهداية وإرشادًا، فكتب أهل العلم المصنفة في العقائد كلها تفصيل لما في هذه الآية الكريمة.

٣- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾

[البقرة: ٢٥٥]

قد أخبر النبي ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن على الإطلاق، وأنها تحفظ قارئها من الشياطين والشرور كلها؛ لما احتوت عليه من معاني التوحيد والعظمة وسعة صفات الكمال للَّه تعالى فأخبر أنه اللَّه الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية غيره، فألوهية غيره وعبادة غيره باطلة ضارة في الحال والمآل، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق الموصلة إلى كل كمال، وأنه الحي كامل الحياة، فمن كمال حياته أنه السميع البصير القدير المحيط علمه بكل شيء، الكامل من كل وجه.

فالحي يتضمن جميع الصفات الذاتية، والقيوم الذي قام بنفسه واستغنى عن جميع المخلوقات وقام بها فأوجدها وأبقاها وأمدها بكل ما تحتاج إليه في بقائها، فالقيوم يتضمن جميع صفات الأفعال؛ ولهذا ورد أن اسم اللَّه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ فإن هذين الاسمين الكريمين يدخل فيهما جميع الكمالات الذاتية والفعلية، ومن كمال حياته وقيوميته أنه لا تأخذه سنة أي نعاس، ولا نوم؛ لأنهما إنما يعرضان للمخلوق الذي

يعتريه الضعف والعجز والانحلال، وينزه عنها ذو العظمة والكبرياء والجلال.

وأخبر أنه مالك لجميع ما في السموات وما في الأرض، فكلهم عبيده ومماليكه لا يخرج أحد منهم عن هذا الوصف اللازم، فهو المالك لجميع الممالك، وهو الذي اتصف بصفات الملك الكامل والتصرف التام النافذ، والسلطان والكبرياء.

ومن تمام ملكه أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له، مماليك لا يقدمون على الشفاعة لأحد حتى يأذن لهم: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ [الزمر: ٤٤] ولا يشفعون إلا لمن ارتضاه اللّٰه، ولا يرضى إلا عمن قام بتوحيده واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا فليس له في الشفاعة نصيب، وأسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال: لا إله إلا اللّٰه خالصًا من قلبه.

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلة التي لا نهاية لها ﴿وَمَا خَلْفَهُمْۖ﴾ من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وأن الخلق لا يحيط أحد منهم بشيء من علم اللّٰه ولا معلوماته إلا بما شاء منهما وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جدًّا بالنسبة إلى علم البارئ تضمحل العلوم كلها في علم البارئ

ومعلوماته، كما قال أعلم المخلوقات وهم الرسل والملائكة ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].

ثم أخبر عن عظمته وجلاله، وأن كرسيه وسع السموات والأرض، وأنه قد حفظهما بما فيهما من العوالم، بالأسباب والنظامات التي جعلها اللَّه في مخلوقاته ومع ذلك فلا يئوده، أي: يثقله حفظهما لكمال عظمته وقوة اقتداره وسعة حكمته في أحكامه، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ بذاته على جميع مخلوقاته، فهو الرفيع الذي باين جميع مخلوقاته ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ بعظمة صفاته الذي له كل صفة كمال، ومن تلك الصفات أكملها ومنتهاها، وهو العلي الذي قهر جميع المخلوقات، ودانت له كل الموجودات، وخضعت له الصعاب وذلت له الرقاب ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء والمجد الذي تحبه القلوب وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل موجود وإن جلت عن الصفة فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم، فتبارك اللَّه ذو الجلال والإكرام.

فآية احتوت على هذه المعاني التي هي أجل المعاني وأفرضها على العباد يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها متدبرًا متفهمًا أن يمتلئ قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون بذلك محفوظًا من شرور الشيطان، وقد نعت البارئ نفسه الكريمة بهذه الأوصاف في عدة آيات من كتابه.

٤- ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

هذه أجل الشهادات على الإطلاق؛ فإنها صدرت من الملك العظيم، ومن ملائكته وأنبيائه وأهل العلم على أجل مشهود عليه، وهو توحيد اللَّه وقيامه بالقسط، وذلك يتضمن الشهادة على جميع أحكام الشرع وأحكام الجزاء، فإن الدين أصله وقاعدته توحيد اللَّه وإفراده بالعبادة، والاعتراف بانفراده بصفات العظمة والكبرياء والمجد والعز والجلال، وبنعوت الجود والبر والرحمة والإحسان والجمال، وبكماله المطلق الذي لا يحصي أحد من الخلق أن يحيطوا بشيء منه أو يبلغوه أو يصلوا إلى الثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده.

وأما القسط فهو العدل الكامل واللَّه تعالى هو القائم بالعدل في شرعه وخلقه وجزائه، فإن العبادات الشرعية والمعاملات وتوابعها، والأمر والنهي كله عدل وقسط لا ظلم فيه بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الإحكام والانتظام وفي غاية الحكمة، والجزاء على الأعمال كله دائر بين فضل اللَّه وإحسانه على الموحدين المؤمنين به، وبين عدله في عقوبة الكافرين والعاصين؛ فإنه لم يهضمهم شيئًا من حسناتهم، ولم يعذبهم بغير ما كسبوا ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩].

فتوحيد اللَّه ودينه قد ثبت ثبوتًا لا ريب فيه، وهو أعظم الحقائق وأوضحها، وقد شهد اللَّه له بذلك بما أقام من الآيات والبراهين والحجج المتنوعة عليه، ومن شهادته تعالى أنه أقام أهل العلم العارفين بهذه الشهادة، فإنهم المرجع للعباد في تحقيق كل حق وإبطال كل باطل؛ لما خصهم اللَّه به من العلم الصحيح واليقين التام والمعرفة الراسخة.

وهذا من جملة فضائل العلم وأهله، فإن اللَّه جعلهم وسائط بينه وبين عباده يبلغونهم توحيده ودينه وشرائعه الظاهرة والباطنة، وأمر الناس بسؤالهم والرجوع إلى قولهم، وأنهم هم الأئمة المتبعون، وغيرهم تابع لهم في الدنيا والآخرة؛ ولهذا لهم الكلمة الرفيعة حتى في الآخرة، لما ذكر تعالى اختصام الخلق واختلافهم ذكر القول الفصل في ذلك الصادر من أهل العلم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

[الروم: ٥٦]

وفي هذا دليل على كمال أهل العلم فإن اللَّه استشهد بهم على عباده، وذلك تعديل منه لهم، وفي هذا من الشرف وعلو المكانة ما لا يخفى.

٥- ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

العلم لابد فيه من إقرار القلب، ومعرفته بمعنى ما طلب منه علمه، ولا يتم ذلك إلا بالعمل بمقتضى ذلك العلم في كل مقام بحسبه، وهذا العلم الذي أمر اللَّه به فرض عين على كل إنسان لا يسقط عن أحد كائنًا من كان.

والضرورة إلى هذا العلم والعمل بمقتضاه من تمام التأله للَّه فوق كل ضرورة، والعلم بالشيء يتوقف على معرفة الطريق المفضي إلى معرفته وسلوكها، وللطريق إلى العلم بأنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ على وجه الإجمال والعموم أمور:

**أحدها** : وهو أعظمها وأوضحها وأقواها تدبر أسماء اللَّه وصفاته وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلاله، فإن معرفتها توجب العلم بأنه لا يستحق الألوهية سواه، وتوجب بذل الجهد في التأله والتعبد للَّه الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

**الثاني** : العلم بأنه الرب المنفرد بالخلق والرزق والتدبير، فبذلك يعلم أنه المنفرد بالألوهية.

**الثالث** : العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به محبة وإنابة، والتأله له وحده لا شريك له.

**الرابع** : ما يراه العباد و يسمعونه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر لرسله وأتباعهم، ومن النعم العاجلة المشاهدة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا برهان على أنه وحده المستحق للألوهية.

**الخامس** : معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع اللَّه واتخذت آلهة وأنها فقيرة إلى اللَّه من كل وجه، ناقصة من كل وجه، لا تملك لنفسها ولا لمن عبدها نفعا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فالعلم بذلك يعلم به بطلان ألوهيتها، وأن ما يدعون من دون اللَّه هو الباطل وأن اللَّه هو الإله الحق المبين.

**السادس** : اتفاق كتب اللَّه على ذلك وتواطؤها عليه.

**السابع**: اتفاق الأنبياء والرسل والعلماء الربانيين على ذلك وشهادتهم به، وهم خواص الخلق وأكملهم أخلاقًا وعقولًا وعلمًا ويقينًا.

**الثامن**: ما أقامه اللَّه من الأدلة والآيات الأفقية والنفسية التي تدل على التوحيد أعظم دلالة وأوضحها وتنادي عليه بلسان المقال ولسان الحال بما أودعها من لطائف صنعته وبديع حكمته وغرائب خلقه.

**التاسع**: ما أودعه اللَّه في شرعه من الآيات المحكمة والأحكام الحسنة والحقوق العادلة والخير الكثير وجلب المنافع كلها ودفع المضار، ومن الإحسان المتنوع، وذلك يدل أكبر دلالة على أنه اللَّه الذي لا يستحق العبادة سواه، وأن شريعته التي نزلت على ألسنة رسله شاهدة بذلك.

فهذه الطرق التي لا تحصى أنواعها وأفرادها قد أبداها اللَّه في كتابه وأعادها ونبه بها العباد على هذا المطلوب الذي هو أعظم المطالب وأجل الغايات، فمن سلك طريقًا من هذه الطرق أفضت به إلى العلم واليقين بأنه لا إله إلا هو، وكلما ازداد العبد سلوكا لهذه الطرق ورغبة فيها ومعرفة ازداد يقينه ورسخ إيمانه، وكان الإيمان في قلبه أرسخ من الجبال، وأحلى من كل لذيذ وأنفس من كل نفيس.

والطريق الأعظم الجامع لذلك كله تدبر القرآن العظيم والتأمل في آياته؛ فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله

وجمله ما لا يحصل من غيره. وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ أي: اطلب من ربك المغفرة لذنبك بأن تفعل الأسباب التي تحصل بها المغفرة من الدعاء بالمغفرة والتوبة النصوح، وفعل الحسنات الماحية، وترك الذنوب والعفو عن الخلق والإحسان إليهم، ومن ذلك الاستغفار لهم؛ فلهذا قال ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فهذا من ثمرات الإيمان بسبب إيمانهم كان لهم حق على كل مسلم أن يدعو لهم بالمغفرة، وإذا كان العبد مأمورًا بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات فمن لوازم ذلك أن يكون ناصحًا لهم يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويحثهم على الخير وينهاهم عن الشر، ويعفو عن معايبهم ومساوئهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعًا تتألف به قلوبهم ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق؛ فإنه بالائتلاف تقل الذنوب وبالافتراق تكثر الشرور والمعاصي ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ أي تصرفاتكم وحركاتكم وذهابكم ومجيئكم وما إليه تنتهون وبه تستقرون فهو المحيط بكم في كل أحوالكم، وهذا فيه التخويف والترغيب من الجزاء على الأعمال حسنها وسيئها.

٦- ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

[الحشر: ٢٢، ٢٣، ٢٤]

هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على كثير من أسماء اللَّه الحسنى التي عليها مدار التوحيد والاعتقاد، فأخبر أنه المألوه الذي لا يستحق العبادة سواه؛ وذلك لكماله العظيم وإحسانه الشامل وتدبيره العام وحكمه الشاملة، فهو الإله الحق وما سواه فعبوديته باطلة؛ لأنه خال من الكمال ومن الأفعال التي فيها النفع والضر، ووصف نفسه بالعلم المحيط بما حضر وغاب وما مضى وما يستقبل وما هو حاضر وما في العالم العلوي وما في العالم السفلي وما ظهر وما بطن، فلا تخفى عليه خافية في مكان من الأمكنة ولا زمان من الأزمنة، ومن كمال علمه وقدرته أنه يعلم ما تنقص الأرض من الأموات وما تفرق من أجزائهم وما استحال من حال إلى حال، أحاط علمًا بذلك على وجه التفصيل فلا يعجزه إعادتهم للبعث والجزاء، ووصف نفسه بأنه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت رحمته الخليقة بأسرها وملأت الوجود كله، ووصف نفسه بأنه ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾ وهو الذي له الملك التام المطلق، له صفات الملك التي هي نعوت العظمة والكبرياء والعز والسلطان، وله التصرف المطلق في جميع الممالك الذي لا ينازعه فيه منازع، والموجودات كلها عبيده وملكه ليس لهم من الأمر شيء.

وأخبر أنه ﴿ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي المقدس المعظم السالم من جميع العيوب والنقائص المنافية لكماله ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ المصدق لرسله وأنبيائه بما جاءوا به من الآيات البينات والبراهين القاطعات والحجج الواضحات، الذي له العلم كله ويعلم من أوصافه المقدسة ونعوته العظيمة ما لا يعلمه بشر ولا ملك ويحب نفسه وما هو عليه من الجلال والجمال ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي له العزة كلها، عزة القوة والقدرة، فهو القوي المتين،

وعزة القهر والغلبة لكل مخلوق، فكلهم نواصيهم بيده وليس لهم من الأمر شيء، وعزة الامتناع الذي تمنع بعزته عن كل مخلوق فلا يعارض ولا يمانع، وليس له نديد ولا ضديد ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي قهر جميع المخلوقات ودانت له الموجودات واعتلى على الكائنات وجبر بلطفه وإحسانه القلوب المنكسرات ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة أحد من خلقه ومماثلتهم لعظمته وكبريائه ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به ولم يقدره حق قدره ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ لجميع المخلوقات ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ بحكمته ولطفه لجميع البريات ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ بحسن خلقه لجميع الموجودات، أعطى كل شيء خلقه ثم هدى كل مخلوق وكل عضو لما خلق له وهيئ له، فاللَّه تعالى قد تفرد بهذه الأوصاف المتعلقة بخلقه لم يشاركه في ذلك مشارك، وهذا من براهين توحيده، وأن من تفرد بالخلق والبرء والتصوير فهو المستحق للعبودية ونهاية الحب وغاية الخضوع.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وقد ورد في الحديث الصحيح أن للَّه تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة- يعني أحصى ألفاظها وحفظها وعقلها وتعبد للَّه بها- فهو تعالى الذي له كل اسم حسن، وكل صفة جلال وكمال، فيستحق من عباده كل إجلال وتعظيم وحب وخضوع ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني من المكلفين والحيوانات والأشجار والجمادات ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في خلقه وشرعه.

٧- بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص] ﴿قُلْ﴾ أي: قل قولًا جازمًا فيه معتقدًا له عارفًا بمعناه عاملًا بمقتضاه من الإيمان بالله والتعظيم والخضوع ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: الذي انحصرت فيه الأحدية، وهي التفرد بكل صفة كمال الذي لا يشاركه في ذلك مشارك، الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا والأفعال المقدسة والتصرف المطلق ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي: السيد الذي قد انتهى سؤدده، العليم الذي قد كمل علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه وفي قدرته وفي جميع أوصاف كماله، ولأجل هذا صمدت له المخلوقات كلها وقصدته في كل حاجاتها وفزعت إليه الخليقة في مهماتها وملماتها.

فالصمد هو الذي صمدت له المخلوقات لما اتصف به من جميع الكمالات، ومن كماله أنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ لأنه الغني المالك، فاتخاذ الولد ينافي ملكه وغناه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي ليس له مكافئ ولا مثيل في أسمائه وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى.

فهذه السورة أصل عظيم من أصول الإيمان، وقد تضمنت توحيد الأسماء والصفات، ومن لوازم ذلك توحيد الألوهية، وأن المتفرد بالوحدانية من كل وجه الذي ليس له مثيل بوجه من الوجوه هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له، لا إله إلا هو.

٨- ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

يخبر تعالى وهو أصدق القائلين أنه إله واحد أي: متوحد منفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فليس له شريك ولا سمي له، ولا كفؤ ولا مثل ولا نظير ولا خالق ولا مدبر غيره، فإذا تقرر أنه كذلك فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة ولا يشرك به أحد من خلقه لأنه الرحمن الرحيم المتصف بالرحمة العظيمة التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء وعمت كل حي، فبرحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عن العباد كل نقمة، وبرحمته عرف عباده نفسه بصفاته وآلائه، وبين لهم كل ما يحتاجونه من أمور دينهم ومصالح دنياهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة دقت أو جلت فمن اللَّه، وأن أحدًا من المخلوقين لا ينفع أحدًا علم أنه لا يستحق العبادة إلا المتفرد بالنعم، الدافع للمكاره، وتعين على العباد أن يفردوه بالمحبة والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل وغير ذلك من أنواع الطاعات، وإن من أظلم الظلم وأقبح القبيح وأعظم الضلال أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد، وأن يشرك المخلوقون من تراب بالرب العظيم، وأن يسوى المخلوق العاجز القاصر الناقص من كل وجه بالرب الخالق المدبر القوي الذي قهر كل شيء، وخضعت له الرقاب.

ففي هذه الآية إثبات وحدانية البارئ وألوهيته، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين، والاستدلال على ذلك بتفرده بالرحمة التي من آثارها جميع البر والإحسان في الدنيا والآخرة، ثم ذكر اللَّه الأدلة التفصيلية بقوله:

٩- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة آيات، أي أدلة على وحدانية البارئ وألوهيته وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته، وآية على البعث والجزاء لقوم يعقلون، أي لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعلى حسب ما من اللّه على عبده من العقل وصرفه في التفكر في الآيات ينتفع بها ويعرفها ويعقلها بعقله وفكره وتدبره، ففي خلق السموات في ارتفاعها واتساعها وإحكامها وإتقانها، وما جعل اللّه فيها من الشمس والقمر والنجوم وجريانها بانتظام عجيب لمصالح العباد.

وفي خلق الأرض وجعلها مهادًا للخلق يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها والاعتبار ما يدل ذلك على انفراد اللّه بالخلق والتدبير وبيان قدرته العظيمة التي بها خلقها، وحكمته التي بها أتقنها وأحسنها ونظمها، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع فيها من منافع الخلق ومصالحهم وضروراتهم وحاجاتهم، وفي ذلك أبلغ دليل وبرهان على كماله من كل وجه، وأن ينفرد بالعبادة لانفراده بالخلق والتدبير والقيام بشئون عباده.

وفي اختلاف الليل والنهار، وهو تعاقبهما على الدوام إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر والبرد والتوسط، وفي الطول والقصر والتوسط وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح

الآدميين وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم والنوابت كلها، كل ذلك بتدبير وتسخير تحار في حسنه العقول، ويعجز عن إدراك كنهه الرجال الفحول، وذلك يدل على قدرة مصرفها وسعة علمه وشمول حكمته، وعموم رحمته ولطفه الشامل وعظمته وكبريائه وسلطانه العظيم، يضطر العباد إلى معرفة ربهم وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له.

وفي الفلك التي تجري في البحر، وهي السفن والمراكب ونحوها مما ألهم اللَّه عباده صنعتها وأقدرهم عليها بتيسير أسبابها، ثم سخر لها هذا البحر العظيم والرياح التي تحملها بما فيها من الركاب والأموال والبضائع التي هي من منافع الناس وبها تنتظم معايشهم.

فمن الذي ألهمهم صنعتها وأقدرهم عليها وخلق لهم من الآلات المتنوعة ما به يعملونها؟ أم من الذي سخر لها هذا البحر تجري فيه بإذنه وتسخيره والرياح؟ أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية و الهوائية النار والمعادن المتنوعة المعينة على حملها وحمل ما فيها من الأموال الثقيلة جدًّا، فهل هذه الأمور حصلت صدفة واتفاقًا؟ أم استقل بعملها وخلق أسبابها هذا المخلوق الضعيف العاجز الذي خرج من بطن أمه لا يعلم شيئا، وليس له قدرة على شيء، ثم أعطاه خالقه القدرة وعلمه ما لم يكن يعلم، أم تقول - والحق تقول - بل المسخر لذلك الرب الواحد العظيم العليم الحكيم القدير الذي لا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء، بل الأشياء كلها قد دانت لربوبيته، واستكانت لعظمته، وخضعت لجبروته وغاية العبد الضعيف أن جعله اللَّه جزءا من أجزاء الأسباب التي بها وجدت هذه الأمور العظام، فهذا يدل على

رحمة اللَّه وعنايته بعباده، ويدعو العباد إلى أن يعبدوه وحده لا شريك له وينيبوا إليه في كل حال.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ وهو المطر النازل من السحاب ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فأظهرت أنواع الأقوات وأصناف الأشجار والنباتات التي لا يمكن للعباد أن يعيشوا بدونها .

أليس ذلك برهانًا على قدرة من أنزله وأخرج به ما أخرج، وعلى رحمته ولطفه بعباده، وشدة افتقار الخليقة إليه في كل أحوالهم وهو يحدوهم إلى إخلاص الدين له والإنابة إليه والقيام بعبوديته ظاهرًا وباطنًا.

وكذلك هو دليل على إحياء اللَّه للموتى كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقد ذكر اللَّه هذا البرهان على البعث في عدة آيات، كما ذكر ابتداء الخلق برهانًا على إعادته وكما ذكر كمال علمه وقدرته، وخلق السموات والأرض، وأنه جعل للعباد من الشجر الأخضر نارًا برهانًا بينًا على البعث.

وقوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة وسخرها للآدميين ينتفعون بها من وجوه كثيرة، ومع هذا فهو قائم بأرزاقها، متكفل بأقواتها، فما من دابة في الأرض إلا على اللَّه رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها وفي تصريف الرياح آيات عظيمة على وحدانية اللَّه وتفرده بالكمال المطلق، فتارة تكون باردة وحارة وبين

ذلك، وجنوبًا وشمالًا وشرقًا ودبورًا وبين ذلك، وتارة تثير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تلقحه وتدره، وتارة تمزقه، وتزيل ضرره، وتارة ترسل بالرحمة وتارة ترسل بالعذاب فمن الذي صرفها هذا التصريف ورتب عليها من المنافع للعباد شيئا كثيرًا إلا العزيز الحكيم الرحيم اللطيف بعباده المستحق للمحبة والثناء والشكر والحمد من الخليقة.

وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير فيسوقه اللَّه إلى حيث يشاء ويجعله حياة للبلاد والعباد، ويروي به التلول والوهاد، وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه، ويصرف عنهم ضرره فينزله رحمة ولطفًا، ويصرفه عناية وعطفًا.

فما أعظم سلطانه وأغزر إحسانه وألطف امتنانه، أليس من أقبح القبيح وأظلم الظلم أن يتمتع العباد برزقه ويعيشوا ببره، وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه ومع ذلك من كمال حلمه وعفوه وصفحه يوالي عليهم الإحسان. خيره إليهم على الدوام نازل، وشرهم إليه في كل وقت صاعد.

والحاصل أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات وتغلغل فكره في بدائع الكائنات علم أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب براهين ودلالات على جميع ما أخبر به عن نفسه ووحدانيته وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مدبرات مسخرات ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها، فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

ولنقتصر على هذا الأنموذج من الآيات المتعلقة بالتوحيد مع ما دخل في ضمنها من الإيمان بالجزاء والبعث وبالرسل والكتب، وقد قرن اللَّه ذلك بأدلته وبراهينه الموصلة إلى العلم التام، واليقين الراسخ، وبذلك يعلم أن هذه الأصول الثلاثة متلازمة: التوحيد والرسالة والمعاد، كما أن في ضمن الآيات المتعلقة بالجزاء شيء كثير من متعلقات التوحيد والرسالة، فسبحان من جعل في كلامه الهدى والرشاد وإصلاح العباد.

* * *

## فصل

١٠- ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

هذه المنة التي امتن اللّه بها على عباده المؤمنين أكبر المنن بل هي أصلها، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي جمع اللّه به جميع المحاسن الموجودة في الرسل، ومن كماله العظيم هذه الآثار التي جعلها اللّه نتيجة رسالته التي بها كمال المؤمنين علما وعملا وأخلاقا وآدابا، وبها زال عنهم كل شر وضرر فبعثه اللّه من أنفسهم وأنفسهم وقبيلتهم، يعرفون نسبه أشرف الأنساب وصدقه وأمانته وكماله الذي فاق به الأولين والآخرين؛ ناصحًا لهم مشفقا حريصا على هدايتهم ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فيعلمهم ألفاظها ويشرح لهم معانيها ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم من الشرك والمعاصي والرذائل وسائر الخصال الذميمة، ويزكيهم أيضًا أي ينميهم فيحثهم على الأخلاق الجميلة؛ فإن التزكية تتضمن هذين الأمرين: التطهير من المساوئ والتنمية بالمحاسن ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي السنة.

فالكتاب والسنة بهما أكمل اللّه للرسول وأمته الدين وبهما حصل العلم بأصول الدين وفروعه، وبهما حصلت جميع العلوم النافعة وما يترتب عليها من الخيرات، وزوال الشرور، وبهما حصل العلم اليقيني بجميع الحقائق النافعة وبهما الهداية والصلاح للبشر.

فمحمد ﷺ هو الإمام الأعظم المعلم لهذين الأمرين اللذين ينابيع العلوم كلها تتفجر من معينهما، فعلم ﷺ أمته الكتاب والحكمة وأوقفهم على حكم الأحكام وأسرارها فكانت حياته كلها أقواله وأفعاله وتقريراته وهديه وأخلاقه الظاهرة والباطنة وسيرته الكاملة المتنوعة في كل فن من الفنون تعليمًا منه للمؤمنين، وشرحًا للكتاب والحكمة فجمع لهم بين تعليم الأحكام الأصولية والفروعية، وما به تدرك وتنال، والطرق التي تفضي إليها عقلًا ونقلًا وتفكيرًا وتدبرًا واستخراجًا للعلوم الكونية من مظانها وينابيعها، وبين لهم فوائد ذلك كله وثمراته وشرح لهم الصراط المستقيم: اعتقاداته وأخلاقه وأعماله، وما لسالكه عند اللَّه من الخير العاجل والآجل وما على المنحرف عنه من العقاب والضرر العاجل والآجل.

فكان خيار المؤمنين بهذا التعليم الصادر من النبي الكريم مباشرة وتبليغًا من العلماء الربانيين الراسخين في العلم، ومن الهداة المهديين ومن أكابر الصديقين، وحصل لسائر المؤمنين من هذا التعليم نصيب وافر من الخير العظيم على حسب طبقاتهم ومنازلهم، وذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء واللَّه ذو الفضل العظيم، فخرجوا بهذا التعليم من جميع الضلالات، وانجالت عنهم الشرور المتنوعة والجهالات، وتم لهم النور الكامل وانقشعت عنهم الظلمات.

فيا لها من نعمة لا يقدر قدرها ولا يحصي المؤمنون كنه شكرها.

١١ - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ

تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٤، ٥، ٦].

ذكر اللَّه تعالى في هذا قدح المكذبين لمحمد ﷺ، وإدلاءهم بهذه الشبه التي يعلمون ويعلم الناس بطلانها، فزعموا أنه افترى هذا القرآن وأنه ساعده على ذلك قوم آخرون، فرد اللَّه عليهم هذه المقالة المنتهية في القبح بأن هذا ظلم عظيم وجراءة يعجب السامع كيف سولت لهم أنفسهم هذا القول الهراء، وأنه من الزور والظلم، فإنهم قد كانوا يعرفون بلا شك صدقه وأمانته التي لا يلحقه فيها أحد، وأنه لم يجتمع بأحد من أهل العلم ولا رحل في طلبه، وقد نشأ بين أمة أمية في غاية الجهل والضلال، وقد جاءهم بهذا الكتاب العظيم الذي لم يطرق العالم أعظم منه، ولا أعلى معاني وأغزر علمًا، ولا أبلغ من ألفاظه ومعانيه، وأتم من حكمه وحكمه ومبانيه.

وقد تحدى أقصاهم وأدناهم، وأفرادهم وجماعتهم، وأولهم وآخرهم أن يأتي بمثله أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة من مثله، وصرح لهم أنهم إن أتوا بشيء من مثله فهم صادقون، وهم أهل الفصاحة والبلاغة في الكلام، فعجزوا غاية العجز عن معارضته والإتيان بمثله، واتضح لهم ولغيرهم عيهم وعجزهم، وتبين بطلان دعواهم.

وكل من حاول أن يأتي بكلام يعارض به ما جاء به الرسول صار كلامه ضحكة للصبيان فضلًا عن أهل النظر والعقول، وكل شبهة يدلون بها في معارضة الرسول من حين يوجه لها النظر الصحيح تضمحل وتزهق ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ومن جراءتهم

أنهم قالوا إن هذا القرآن الذي جاء به محمد أساطير الأولين اكتتبها من كتب الأولين المسطورة، فهي تملى عليه بكرة وأصيلا فيا ويحهم من الذي عندهم في بطن مكة يمليها، وهل يوجد في ذلك الوقت في مكة أو ما حولها كتب تملى؟ ولو فرض وقدر أنه يوجد أحد لم يختص محمد وحده بالأخذ عنه؟

ولما كانت هذه مقالة زور وافتراء لا يخفى كذبها على أحد تشبثوا وقالوا: كان محمد يجلس إلى قين حداد في مكة فارسي فيتعلم منه؛ فلهذا قال الله عنهم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، بالغ في البيان والبلاغة نهايتها وغايتها، فلا يمكن الجمع بين النقيضين أن يتعلمه من هذا الأبكم أعجمي اللسان الذي لم يعرف عنه علم يرجع إليه، ولا معرفة يتميز بها، وهذا القرآن الذي جاء به مع كمال بلاغته حوى علوم الأولين والآخرين.

ولما كان هذا القول الذي قالوه، والمكابرة التي تجرءوا عليها قد علم الموافق والمخالف كذبها وافتراءها، وكان جميع أعداء الرسول لهم ورثة يقومون بالعداوة للرسول والدين ويعطونها حقها، ولو جلبت عليهم ما جلبت من الدخول في الكذب والافتراء والمكابرة، وقد عرف هؤلاء الأعداء المتأخرون مكابرة إخوانهم الذين باشروا تكذيب الرسول ورأوا أن مقالتهم قد بطلت واضمحلت وبان زورها لكل أحد، صاغها هؤلاء المكذبون بعبارة موهوها وظنوا أنها بهذا التمويه تروج، فزعموا - وما أسمجه وأكذبه من زعم - أن محمدًا كان يتعلم من نفسه،

وأنه كان يخلو بالطبيعة: السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم فيعطيها لبه، ويناجيها بقلبه فيخيل إليه أصناف التخاييل فيأتي بها إلى الناس زاعمًا أنها من وحي اللَّه على يد جبريل وأن هذه التخيلات من الأمور العالية التي يعتاد الإتيان بها أهل الرأي والحجا.

ولما رأوا آثارها الجليلة في الإسلام وأهله وتعاليمه وتقويمه للأمم وبهرهم هذا النور العظيم لجئوا إلى هذا التحذلق الذي منتهاه وغايته أنهم صوروا النبي ﷺ ورقوه إلى رجل من الطبيعيين كما قال هذا القول الباطل أحد ملاحدة الفرنسيين وتلقاها عنه بعض الملاحدة العصريين وهو مبني على إنكار وجود رب العالمين وأنه ما ثم إلا عمل الطبيعة وقد علم الناس أن هذا القول المزور أعظم مكابرة ومباهتة من قول الأولين وأن هذا الافتراء الذي ولدوه بعد مئات السنين أوضح ضلالًا وظلما وجراءة ووقاحة من زور الأولين وأن هؤلاء الأراذل الذين أعجبوا بآرائهم وتاهوا بعقولهم قد بين اللَّه كذبهم فيما قالوه وأن عقولًا ولدت هذه الأقوال المؤتفكة والخيالات الفاسدة، والمقالات الفاسدة لعقول سافلة وآراء ساقطة يعرف فسادها بنتائجها ومكابرتها و إنكارها أجلى الحقائق ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦]، فالرب القادر العظيم الذي أحاط علمه بجميع الأسرار وعلم أحوال العباد حاضرها ومستقبلها فأنزله لهدايتهم وجعله منارا وعلما يهتدي به المهتدون في كل وقت وحين.

فجميع الحقائق التي دعا إليها هذا الرسول وهذا القرآن حقائق ثابتة نافعة للعباد لا يأتي من الحقائق ما يغيرها، ومحال أن يأتي شيء أصلح

منها أو مثلها أو يقاربها ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ومن كمال علمه وقدرته أنه لو تقول عليه أحد بمثل هذه المقالة لعاجله بالعقوبة فلما أيد من جاء بها بنصره وحججه، وأرى العباد آياته في الآفاق وفي أنفسهم التي يتبين بها أنه الحق وما سواه ضلال علم أن هذا الرسول أصدق الخلق وأنصحهم وأبرهم وأعلمهم وأخشاهم وأتقاهم لربه وأن أعداءه المكذبين له أكذب الخلق وأغشهم وأعظمهم جهلًا وضلالًا وغيًّا وفسادًا في كل زمان ومكان.

ومن مكابرة أعداء الرسول أنهم جعلوا يتناقضون في مقالاتهم ويتفننون في إفكهم المكشوف كذبه فمنهم من قال إنه مجنون ومنهم من قال ساحر وكاهن ومنهم من قال مسحور ومنهم من قال لو كان صادقًا لجاءت الملائكة تؤيده ولو كان صادقًا لأغناه اللَّه عن المشي في الأسواق وجعل له جنات وأنهارًا وأموالًا كثيرة، وكل يعلم أن هذه الأقوال مع تناقضها ليست من الشبه فضلًا عن كونها من الحجج؛ ولهذا قال تعالى متعجبًا: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨]، ومثل هذه الأقوال التي يذكرها اللَّه عن المكذبين للرسول هي بنفسها تدل على كذبهم ومكابرتهم قبل أن يعرف بطلانها من الأدلة الأخرى.

وإذا وزنت هذه الأقوال الجارية من الأولين رأيت نظيرها وأقبح منها جارية من الملاحدة المتأخرين ويأبى اللَّه إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، فما جاء به الرسول من

الهدى في جميع أبواب العلوم النافعة والدين الحق الذي هو الصلاح المطلق أكبر الأدلة على أنه رسول اللّه حقًا، وأكبر الأدلة على إبطال كل ما ناقضه من أقوال المؤتفكين والحمد للّه رب العالمين.

١٢- بسم اللّه الرحمن الرحيم ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم: الآيات ١-٧].

يقسم تعالى بالقلم وهو اسم جنس شامل للأقلام التي تكتب بها أنواع العلوم، ويسطر بها المنثور والمنظوم؛ وذلك أن القلم وما يسطر به من أنواع الكلام من آياته العظيمة التي تستحق أن يقسم بها على براءة نبيه محمد ﷺ مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون، فنفى عنه ذلك بنعمة ربه عليه وإحسانه؛ إذ من عليه بالعقل الكامل والرأي السديد والكلام الفصل الذي هو من أحسن ما جرت به الأقلام وسطره الأنام، وهذا هو السعادة في الدنيا ثم ذكر سعادته في الآخرة فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾ أي لأجرًا عظيمًا كما يفيده التنكير غير مقطوع، بل هو دائم متتابع مستمر؛ وذلك لما أسلفه ﷺ من المقامات العالية في الدين والأخلاق الرفيعة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ فعلا ﷺ بخلقه العظيم على جميع الخلق وفاق الأولين والآخرين، وكان خلقه العظيم كما فسرته به عائشة رضي اللّه عنها هذا القرآن الكريم وذلك نحو قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وما أشبهها من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، والآيات التي فيها أثنى الحق على كل خلق جميل فكان أول الخلق امتثالًا لها وسبقا إليها وإلى تكميلها، فكان له منها أكملها وأجلها وأعلاها، وهو في كل خصلة منها في الذروة العليا، فكان سهلًا لينًا قريبًا من الناس مجيبًا لدعوة من دعاه، قاضيًا لحاجة من استقضاه، جابرًا لقلب من سأله لا يحرمه ولا يرده خائبًا، وإذا أراد أصحابه أمرًا وافقهم عليه وتابعهم فيه إذا لم يكن في ذلك محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليسا إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه ولا يغلظ له في كلامه ولا يطوي عنه بشره ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إليه غاية الإحسان ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ.

فلما أنزله اللَّه بأعلى المنازل وكان أعداؤه يقولون إنه مجنون مفتون قال: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝﴾ وقد تبين أنه كان أهدى الناس وأكملهم وأنفعهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس للناس وأنهم هم الذين فتنوا عباد اللَّه وأضلوهم عن سبيله، وكفى علم اللَّه بذلك؛ فإنه المحاسب المجازي ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

وفيه تهديد للضالين ووعد للمهتدين وبيان لحكمة اللَّه في هدايته من يصلح للهداية دون غيره.

## فصل

١٣- ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨] إلى آخر السورة الكريمة.

**من أهم أصول الإيمان**: الإيمان باليوم الآخر وهو الإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله بعد الموت من فتنة القبر ونعيمه وعذابه، وأحوال يوم القيامة وما يكون فيه، ومن صفات الجنة والنار وصفات أهلهما.

فالإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بذلك كله جملة وتفصيلًا، أما أحوال القبر وفتنته وعذابه ونعيمه وتفاصيل ذلك فقد تواترت به الأحاديث الصحيحة والحسنة عن رسول الله ﷺ كما هو معروف، والقرآن أشار إليه في عدة آيات، وأما ما يكون بعد ذلك فإذا أراد الملك القادر بعث العباد وحشرهم وجزاءهم ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ وهو قرن عظيم لا يعلم عظمه إلا الذي خلقه، كما ورد في حديث الصور المشهور، أو نفخ في الصور على وجه لا يعلم كنهه إلا الله نفخة الصعق والفزع انزعج لهذا أهل السموات والأرض وصعقوا إلا من شاء الله من خلقه ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ نفخة البعث ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ من أجداثهم كاملي الخلقة ينظرون ما يستقبلهم من هذه الحياة الأخروية التي يجازى فيها العباد بأعمالهم، حسنها وسيئها.

أما المؤمنون الطائعون فيقومون مطمئنين طامعين في فضل ربهم ورحمته مستبشرين بثوابه وعفوه ومغفرته، يحشرون إلى موقف القيامة وفدًا مكرمين.

وأما المجرمون فيقومون فزعين خائفين متحسرين يدعون بالويل والثبور يقولون: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: ٥٢] فيساقوا إلى جهنم وردا.

فحينئذ تكثر القلاقل والأهوال ويشيب الولدان من هول ذلك اليوم وفظاعته ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ٢﴾ [الحج: ٢]، ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ٤٢﴾ [عبس: ٣٤-٤٢] ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٥- ٢٦]، وتكور الشمس والقمر وتنتثر النجوم فتذهب هذه الأنوار المشاهدة، وتشرق الأرض بنور ربها، وينزل اللَّه لفصل القضاء بين عباده، ومحاسبتهم على أعمالهم.

أما المؤمنون فيحاسبهم حسابًا يسيرًا يقررهم بذنوبهم ثم يغفرها ويسترها على الخلائق، ويضاعف لهم الحسنات، ويعطيهم من فضله وإحسانه ما لا تبلغه أعمالهم، ويعطون كتبهم بأيمانهم إكرامًا واحترامًا، كما تبيض وجوههم، وتثقل موازينهم، ويغتبطون بذلك ويستبشرون به فيقولون لإخوانهم ومعارفهم ومحبيهم: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ﴾ [الحاقة: ١٩- ٢٠] أي أيقنت ﴿أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٢٠- ٢١]، ويساقون إلى الجنة زمرًا كل طائفة منهم

مع نظرائهم في الخير بحسب طبقاتهم وسبقهم كما يردون في عرصات القيامة حوض نبيهم فيشربون منه شربة هنيئة لا يظمئون بعدها، ويمرون على الصراط على قدر أعمالهم كلمح البصر، وكالبرق الخاطف، وكأجاويد الخيل والإبل وكسعي الرجال وكمشيهم، ودون ذلك.

فإذا عبروا على الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص بعضهم من بعض مظالم وتبعات كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها بشفاعة محمد ﷺ فتلقاهم خزنة الجنة يسلمون عليهم، ويهنئونهم بالنجاة من العذاب وحصول الخير والثواب والخلود الأبدي بسبب طيبهم؛ ولهذا قالوا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾ [الزمر: ٧٣]، أي طابت قلوبكم بالعقائد الصحيحة الصادقة، والأخلاق الجميلة، وألسنتكم بذكر اللَّه والثناء عليه، وجوارحكم بخدمته والقيام بطاعته ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، فإذا دخلوها ورأوا ما فيها من النعيم المقيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، حمدوا اللَّه على منته عليهم بالسوابق والإيمان والأعمال الصالحة، وبإنجاز ما وعدهم به على ألسنة رسله، وعلى أن اللَّه أورثهم الجنة يتبوءون من خيراتها حيث يشاءون وأنى يشاءون مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من نعيم القلوب والأرواح، ومن نعيم الأبدان والأجسام ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢١ وَحُورٌ عِينٞ ٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ٢٣﴾ [الواقعة: ١٥-٢٣] خيرات الأخلاق حسان الوجوه، قد جمع اللَّه لهن حسن البواطن والظواهر فهن سرور النفس وقرة النواظر.

وتمام ذلك أن اللّه يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدًا، وأنه يقال لهم إن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، فلهم كل ما يشاءون فيها وتتعلق به أمانيهم، ولهم فوق ذلك مما لم تبلغه أمانيهم، ولهم نعيم أعلى من ذلك كله وهو التمتع بالنظر إلى وجهه الكريم، وسماع خطابه والابتهاج برضاه وقربه، والسرور بمحبته وذكره وحمده والثناء عليه وشكره؛ مما يشاهدون من كثرة الخيرات، وسوابغ النعم والهبات، وزيادة النعيم وتواصله، ومما يزدادون من معرفته والأنس به، فتبارك اللّه ذو الجلال والإكرام.

وأما الكافرون المجرمون فيحاسبهم اللّه على ما أسلفوه من الجرائم ويقرعهم ويخزيهم بين الخلائق، ويعطون كتبهم من وراء ظهورهم بشمائلهم، وتسود منهم الوجوه، وتخف موازينهم، ويساقون إلى جهنم جياعًا عطاشًا منزعجين مرعوبين زمرًا، كل طائفة تحشر مع نظيرها من أهل الشر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١] في وجوههم ففاجأهم حرها المقطع وحل بهم الفزع الأكبر الذي لا يشبهه فزع، وتلقتهم خزنة الجحيم توبخهم على ما قدموه، وقالوا لهم: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الزمر: ٧١] قد جاءتنا الرسل وبلغتنا النذر، فما كان منا إليهم إلا استهزاء بهم والتكذيب، فلو كان لنا أسماع واعية، وعقول نافعة ما وصلنا إلى هذه الدار، بل خالفنا المنقول والمعقول ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١١].

ما أشد شقاءهم وعناءهم، ينوع عليهم العذاب أنواعًا، فتارة يعذبون بالسعير المحرق لظواهرهم وبواطنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها، وتارة بالزمهرير الذي قد بلغ برده أن يهري اللحوم ويكسر العظام، وتارة بالجوع المفرط والعطش المفظع، وإذا استغاثوا لذلك أغيثوا بعذاب آخر، ولون من الشقاء ينسي ما سبقه، فيغاثون بطعام ذي غصة، بشجرة الزقوم التي تخرج في أصل الجحيم وثمرها في غاية المرارة والنتن والحرارة، إذا وصلت بطونهم غلت فيها كغلي الحميم الذي يوقد عليه في النار، وإن يستغيثوا للشراب يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، إذا قرب إليها فلا يدعهم العطش مع ذلك أن لا يتناولوها، فإذا وصلت إلى بطونهم قطعت أمعاءهم ولا يزالون في عذاب متنوع شديد، لا يفتر عنهم العذاب ساعة، ولا يرجون رحمة ولا فرجًا، يتمنون الممات ليستريحوا، فينادون مالكا رئيس خزنة النار ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] فيقول لهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] فلا تلوموا إلا أنفسكم لما أسلفتموه من الجرائم ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزخرف: ٧٨] وينادون أهل الجنة مستغيثين بهم ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠] فيقول لهم أهل الجنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] وينادون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون الآيات: ١٠٦، ١٠٧] فيجيبهم الله: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

[المؤمنون: ١٠٨]

**فحينئذ** ييأسون من كل خير ومن كل فرج وراحة ويتيقنون أنه الخلود الدائم والعذاب الأبدي والشقاء المستمر. فنسأل اللَّه الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، ونعوذ به من النار وما قرب إليها من قول وعمل.

* * *

## فصل

١٤- ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

[الأنبياء: ١٩، ٢٠]

**الإيمان بالملائكة أحد أصول الإيمان**، ولا يتم الإيمان بالله وكتبه ورسله إلا بالإيمان بالملائكة وقد وصفهم الله بأكمل الصفات، وأنهم في غاية القوة على عبادة الله والرغبة العظيمة فيها، وأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأنهم لا يستكبرون عن عبادته، بل يرونها من أعظم نعمه عليهم، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ففي هذا بيان كمال محبتهم لربهم وقوة إنابتهم إليه ونشاطهم التام في طاعته، وأنهم لا يعصونه طرفة عين، وهم الوسائط بينه وبين رسله، وخصوصًا جبريل أفضلهم وأعظمهم وأقواهم وأرفعهم عند الله منزلة؛ فإنه ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ٢٠، ٢١] ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [التكوير: ٢٤] ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢] ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وكما أنهم الوسائط بينه وبين عباده في تبليغ الوحي والشرائع إلى الأنبياء، فهم الوسائط في التدبيرات القدرية، فإن الله وصفهم بأنهم المدبرات أمرا، فكل طائفة منهم قد وكله على عمل هو قائم به بإذن الله، فمنهم الموكلون بالغيث والنبات، والموكلون بحفظ

العباد مما يضرهم، ويحفظ أعمالهم وكتابتها، والموكلون بقبض الأرواح وبتصوير الأجنة في الأرحام وكتابة ما يجري عليها في الحال والمآل والموكلون على الجنة والنار، ومنهم حملة العرش، ومن حوله من الملائكة المقربين، إلى غير ذلك مما وصفوا به في الكتاب والسنة.

فيجب الإيمان بهم إجمالًا وتفصيلًا وكثير من سور القرآن فيها ذكر الملائكة والخبر عنهم فعلينا أن نؤمن بذلك كله، ولا تكاد تجد أحدًا ينكر وجود الملائكة إلا الزنادقة المنكرين لوجود ربهم، ومن تستر بالإسلام منهم فإنه ينكر الملائكة حقيقة، وينكر خبر اللَّه ورسوله عنهم، ويفسر الملائكة تفسيرًا وتحريفًا خبيثًا فيزعم أن الملائكة هي القوى الخيرية والصفات الحسنة الموجودة في الإنسان، وأن الشياطين هي القوى الشريرة فيه، وغرضهم من هذا التحريف دفع الشنعة عنهم، وقد ازدادوا بهذا التحريف شرا إلى شرهم، وراج هذا التحريف الخبيث على بعض الذين يحسنون الظن بهؤلاء الزنادقة، وليس عندهم بصيرة في أديان الرسل، وإن أظهروا تعظيمهم، فإن زنادقة الفلاسفة أعظم في قلوبهم من الرسل، وكفى بالعبد ضلالا وغيا أن يصل إلى هذه الحال، ونعوذ باللَّه من مضلات الفتن.

ولم تزل بهم هذه الجراءة والخضوع لأقوال جهلة الزنادقة حتى فسروا الملائكة بذلك التحريف وحتى زعم بعضهم أن سجود الملائكة لآدم ليس حقيقة، وإنما ذلك تسخير اللَّه للآدميين جميع ما في الأرض من القوى والمعادن وغيرها، فأنكر ما هو معلوم بالضرورة بخبر اللَّه الصريح في كتابه وخبر رسوله، وقال هذه المقالة التي فيها مع تكذيب اللَّه

ورسوله تسوية كفار الآدميين وفجرتهم وأولهم وآخرهم بآدم، ومضمون ذلك بل صريح قولهم إن الملائكة سجدت لجميع الآدميين برهم وفاجرهم، فأين قول الناس في موقف القيامة «**يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته**»(١).

ولولا أن مثل هذه التحريفات والتكذيب للّه ورسوله موجود في كتب من يشار إليهم بالعلم لم يكن بنا حاجة إلى دفع هذا القول الجريء الذي يعلم كل مسلم لم تغيره العقائد الباطلة بطلانه، ولنقتصر على هذا المقدار من الإشارة إلى العقائد المتعلقة بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر والجزاء وإن كان القرآن معظمه في تقرير هذه الأصول العظيمة لشدة الحاجة والضرورة إليها في كل وقت وحال، ولكن حصل وللّه الحمد التنبيه الذي يحصل به المقصود ويعين على غيره واللّه أعلم.

* * *

---

(١) متفق عليه «عن أبي هريرة بطوله».

## فصـل

### (في ذكر الفوائد والثمرات المترتبة على التحقق بهذه العقائد الجليلة)

**اعلم** أن خير الدنيا والآخرة من ثمرات الإيمان الصحيح، وبه يحيا العبد حياة طيبة في الدارين وبه ينجو من المكاره والشرور، وبه تخف الشدائد وتدرك جميع المطالب، ولنشر إلى هذه الثمرات على وجه التفصيل؛ فإن معرفة فوائد الإيمان وثمراته من أكبر الدواعي إلى التزود منه.

**فمن ثمرات الإيمان**: أنه سبب رضا اللَّه الذي هو أكبر شيء، فما نال أحد رضا اللَّه في الدنيا والآخرة إلا بالإيمان وثمراته، بل صرح اللَّه به في كتابه في مواضع كثيرة، وإذا رضي اللَّه عن العبد قبل اليسير من عمله ونماه، وغفر الكثير من زلله ومحاه.

**ومنها**: أن ثواب الآخرة ودخول الجنة والتنعم بنعيمها والنجاة من النار وعقابها إنما يكون بالإيمان، فأهل الإيمان هم أهل الثواب المطلق، وهم الناجون من جميع الشرور.

**ومنها**: أن اللَّه يدفع ويدافع عن الذين آمنوا شرور الدنيا والآخرة، فيدفع عنهم كيد شياطين الإنس والجن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: ٩٩]، ولما ذكر إنجاءه ذا النون قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، أي من الشدائد والمكاره إذا وقعوا فيها والإيمان بنفسه وطبيعته يدفع الإقدام على المعاصي، وإذا وقعت من العبد دفع عقوباتها بالمبادرة إلى التوبة كما

قال ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»(١) إلى آخر الحديث. فبين أن الإيمان يدفع وقوع الفواحش، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾.

[الأعراف: ٢٠١]

**ومنها**: أن اللّه وعد المؤمنين القائمين بالإيمان حقيقة بالنصر وأحقه على نفسه، فمن قام بالإيمان ولوازمه ومتمماته فله النصر في الدنيا والآخرة، وإنما ينتصر أعداء المؤمنين عليهم إذا ضيعوا الإيمان وضيعوا حقوقه وواجباته المتنوعة.

**ومنها**: أن الهداية من اللّه للعلم والعمل ولمعرفة الحق وسلوكه، هي بحسب الإيمان والقيام بحقوقه، قال تعالى ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦] ومعلوم أن اتباع رضوان اللّه الذي هو حقيقة الإخلاص، هو روح الإيمان وساقه الذي يقوم عليه، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] فهذه هداية عملية، هداية توفيق وإعانة على القيام بوظيفة الصبر عند حلول المصائب إذا علم أنها من عند اللّه فرضي وسلم وانقاد.

**ومنها**: أن الإيمان يدعو إلى الزيادة من علومه وأعماله الظاهرة و الباطنة؛ فالمؤمن بحسب إيمانه لا يزال يطلب الزيادة من العلوم النافعة ومن الأعمال النافعة ظاهرًا وباطنًا، وبحسب قوة إيمانه يزيد إيمانه ورغبته وعمله كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

(١) متفق عليه «عن أبي هريرة».

ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

**ومنها**: أن المؤمنين بالله وبكماله وعظمته وكبريائه ومجده، أعظم الناس يقينًا وطمأنينة وتوكلًا على الله وثقة بوعده الصادق ورجاء لرحمته وخوفًا من عقابه، وأعظمهم إجلالا لله ومراقبة، وأعظمهم إخلاصًا وصدقًا، وهذا هو صلاح القلوب لا سبيل إليه إلا بالإيمان.

**ومنها**: أنه لا يمكن للعبد أن يقوم بالإخلاص لله ولعباد الله ونصيحتهم على وجه الكمال إلا بالإيمان؛ فإن المؤمن تحمله عبودية الله وطلب التقرب إلى الله ورجاء ثوابه والخشية من عقابه على القيام بالواجبات التي لله والتي لعباد الله.

**ومنها**: أن المعاملات بين الخلق لا تتم ولا تقوم إلا على الصدق والنصح وعدم الغش بوجه من الوجوه، وهل يقوم بها على الحقيقة إلا المؤمنون؟

**ومنها**: أن الإيمان أكبر عون على تحمل المشقات والقيام بأعباء الطاعات وترك الفواحش التي في النفوس داع قوي إلى فعلها، فلا تتم هذه الأمور إلا بقوة الإيمان.

**ومنها**: أن العبد لابد أن يصاب بشيء من الخوف والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وهو بين أمرين: إما أن يجزع ويضعف صبره فيفوته الخير والثواب ويستحق على ذلك العقاب،

ومصيبته لم تقلع ولم تخف، بل الجزع يزيدها، وإما أن يصبر فيحظى بثوابها، و الصبر لا يقوم إلا على الإيمان، وأما الصبر الذي لا يقوم على الإيمان كالتجلد ونحوه، فما أقل فائدته، وما أسرع ما يعقبه الجزع، فالمؤمنون أعظم الناس صبرًا ويقينًا وثباتًا في مواضع الشدة.

**ومنها** : أن الإيمان يوجب للعبد قوة التوكل على اللَّه لعلمه وإيمانه أن الأمور كلها راجعة إلى اللَّه ومندرجة في قضائه وقدره، وأن من اعتمد عليه كفاه ومن توكل على اللَّه فقد توكل على القوي العزيز القهار، ومع أنه يوجب قوة التوكل فإنه يوجب السعي والجد في كل سبب نافع لأن الأسباب النافعة نوعان: دينية ودنيوية.

فالأسباب الدينية: هي إيمان، وهي من لوازم الإيمان.

والأسباب الدنيوية قسمان: سبب معين على الدين ويحتاج إليه الدين فهو أيضًا من الدين، كالسعي في القوة المعنوية والمادية التي فيها قوة المؤمنين.

وسبب لم يوضع في الأصل معينًا على الدين، ولكن المؤمن لقوة إيمانه ورغبته فيما عند اللَّه من الخير يسلك إلى ربه وينفذ إليه مع كل سبب وطريق، فيستخرج من المباحات بنيته وصدق معرفته ولطف علمه بابا يكون به معينا على الخير مجمًّا للنفس مساعدًا لها على القيام بحقوق اللَّه وحقوق عباده الواجبة والمستحبة، فيكون هذا المباح حسنا في حقه، عبادة للَّه لما صحبه من النية الصادقة حتى أن بعض المؤمنين الصادقين في إيمانهم ومعرفتهم ربما نوى في نومه وراحاته ولذاته التقوي على الخير وتربية البدن لفعل العبادات وتقويته على الخير، وكذلك في أدويته

وعلاجاته التي يحتاجها، وربما نوى في اشتغاله في المباحات أو بعضها الاشتغال عن الشرور بما نوى بذلك جذب من خالطه وعاشره بمثل هذه الأمور على فعل خير أو انكفاف عن شر، وربما نوى بمعاشرته الحسنة إدخال السرور والانبساط على قلوب المؤمنين، ولا ريب أن ذلك كله من الإيمان ولوازمه ولما كان الإيمان بهذا الوصف، قال تعالى في عدة آيات من كتابه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

**ومنها**: أن الإيمان يشجع العبد ويزيد الشجاع شجاعة؛ فإنه لاعتماده على اللّٰه العزيز الحكيم ولقوة رجائه وطمعه فيما عنده تهون عليه المشقات، ويقدم على المخاوف واثقا بربه راجيًا له راهبًا من نزوله من عينه لخوفه من المخلوقين، ومن الأسباب لقوة الشجاعة أن المؤمن يعرف ربه حقًّا ويعرف الخلق حقًّا، فيعرف أن اللّٰه هو النافع الضار المعطي المانع، الذي لا يأتي بالحسنة إلا هو ولا يدفع السيئات إلا هو، وأنه الغني من جميع الوجوه، وأنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها وألطف به من كل أحد، وأن الخلق بخلاف ذلك كله، ولا ريب أن هذا داع قوي عظيم يدعو إلى قوة الشجاعة وقصر خوف العبد ورجائه على ربه، وأن ينتزع من قلبه خوف الخلق ورجاءهم وهيبتهم.

**ومنها**: أن الإيمان هو السبب الأعظم لتعلق القلب باللّٰه في جميع مطالبه الدينية و الدنيوية، والإيمان القوي يدعو إلى هذا المطلب الذي هو أعلى الأمور على الإطلاق، وهو غاية سعادة العبد وفي مقابلة هذا يدعو إلى التحرر من رق القلب للمخلوقين، ومن التعلق بهم، ومن تعلق بالخالق دون المخلوق في كل أحواله حصلت له الحياة الطيبة،

والراحة الحاضرة، والتوحيد الكامل، كما أن من عكس القضية نقص إيمانه وتوحيده، وانفتحت عليه الهموم والغموم والحسرات.

ولا ريب أن هذين الأمرين تبع لقوة الإيمان وضعفه وصدقه وكذبه وتحققه حقيقة أو دعواه والقلب خال منه.

ومنها: أن الإيمان يدعو إلى حسن الخلق مع جميع طبقات الناس كما قال النبي ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقا**»[(١)] وجماع حسن الخلق أن يتحمل العبد الأذى منهم ويبذل إليهم ما استطاع من المعروف القولي والبدني والمالي، وأن يخالقهم بحسب أحوالهم بما يحبون إذا لم يكن في ذلك محذور شرعي، وأن يدفع السيئة بالتي هي أحسن، ولا يقوم بهذا الأمر إلا المؤمنون الكمل قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥] وإذا ضعف الإيمان أو نقص أو انحرف أثر ذلك في أخلاق العبد انحرافًا بحسب بعده عن الإيمان.

ومنها: أن الإيمان الكامل يمنع من دخول النار بالكلية كما منع صاحبه في الدنيا من عمل المعاصي، ومن الإصرار على ما وقع منه منها، والإيمان الناقص يمنع الخلود في النار وإن دخلها كما تواترت بذلك النصوص بأنه يخرج من النار من كان معه مثقال حبة خردل من إيمان.

ومنها: أن الإيمان يوجب لصاحبه أن يكون معتبرًا عند الخلق أمينًا، ويوجب للعبد العفة عن دماء الناس وأموالهم وأعراضهم، وفي

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم «بسند صحيح».

الحديث: «**المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم**»(١) وأي شرف دنيوي أبلغ من هذا الشرف الذي يبلغ بصاحبه أن يكون من الطبقة العالية من الناس لقوة إيمانه وتمام أمانته، ويكون محل الثقة عندهم وإليه المرجع في أمورهم، وهذا من ثمرات الإيمان الجليلة الحاضرة.

**ومنها**: أن قوي الإيمان يجد في قلبه من ذوق حلاوته ولذة طعمه واستحلاء آثاره، والتلذذ بخدمة ربه وأداء حقوقه وحقوق عباده التي هي موجب الإيمان وأثره ما يزري بلذات الدنيا كلها بأسرها؛ فإنه مسرور وقت قيامه بواجبات الإيمان ومستحباته، ومسرور بما يرجوه ويؤمله من ربه من ثوابه وجزائه العاجل والآجل، ومسرور بأنه ربح وقته الذي هو زهرة عمره وأصل مكسبه، ومحشو قلبه أيضًا من لذة معرفته بربه ومعرفته بكماله وكمال بره، وسعة جوده وإحسانه ولذة محبته والإنابة إليه الناشئة عن معرفته بأوصافه، وعن مشاهدة إحسانه ومننه، فالمؤمن يتقلب في لذات الإيمان وحلاوته المتنوعة؛ ولهذا كان الإيمان مسليًا عن المصيبات مهونا للطاعات ومانعًا من وقوع المخالفات، جاعلًا إرادة العبد وهواه تبعًا لما يحبه اللَّه ويرضاه، كما قال النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»(٢).

**ومنها**: أن الإيمان هو السبب الوحيد للقيام بذروة سنام الدين وهو الجهاد البدني والمالي والقولي جهاد الكفار بالسيف والسنان، وجهاد الكفار و المنافقين والمنحرفين في أصول الدين وفروعه بالحكمة والحجة

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٢).

والبرهان، فكلما قوي إيمان العبد علما ومعرفة وإرادة وعزيمة قوي جهاده، وقام بكل ما يقدر عليه بحسب حاله ومرتبته، فنال الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة.

وإذا ضعف الإيمان ترك العبد مقدوره من الجهاد القولي بالعلم والحجة والنصيحة و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضعف جهاده البدني لعدم الحامل له على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] فصادق الإيمان يحمله صدقه على القيام بهذه المرتبة التي هي مرتبة الطبقتين العاليتين بعد النبيين: طبقة الصديقين المجاهدين بالعلم والحجة والتعليم والنصيحة، وطبقة الشهداء الذين قاتلوا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا من دون قتل، وهذا كله من ثمرات الإيمان ومن تمامه وكماله، وبالجملة فخير الدنيا والآخرة كله فرع عن الإيمان ومترتب عليه، والهلاك والنقص إنما يكون بفقد الإيمان أو نقصه والله المستعان.

* * *

## فصل

## «في ذكر بعض الآيات الحاثة على القيام بحقوق الله وحقوق الخلق»

قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦]. والآيات التي في سورة الإسراء ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣]، إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء: ٣٩].

هذه الآيات الكريمة فيها الأمر بعبادة اللّه وحده لا شريك له، والدخول تحت رق عبوديته التي هي غاية شرف العبد، والانقياد لأوامره واجتناب نواهيه؛ محبة له وذلا له، وإخلاصًا للّه وإنابة له في جميع الحالات وفي جميع العبادات الظاهرة والباطنة، وفيها النهي عن الشرك به شيئا سواء كان أكبر بأن يصرف نوعًا من أنواع العبادة لغير اللّه، أو شركًا أصغر مثل وسائل الشرك كالحلف بغير اللّه والرياء ونحو ذلك مما يتذرع به إلى الشرك، بل الواجد المتعين إخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، والتدبير الكامل الشامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد.

ثم بعدما أمر بالقيام بحق الله المقدم على كل حق أمر بالقيام بحقوق ذوي الحقوق من الخلق الأهم فالأهم فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي أحسنوا إليهم بالقول الكريم، والخطاب اللطيف، وبالفعل بالقيام بطاعتهما، واجتناب معصيتهما والحذر من عقوقهما والإنفاق عليهما وإكرام من له تعلق بهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من جهتهما ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤] والأمر بالإحسان إلى الوالدين وإطلاقه يدخل فيه كل ما عده الناس إحسانا وذلك يختلف باختلاف الأوقات والأحوال والأشخاص، وفيه النهي عن ضد الإحسان إليهما، وهو أمران: الإساءة والعقوق الذي هو إيصال الأذى القولي والفعلي إليهما، وترك القيام ببعض حقوقهما الواجبة.

والأمر الثاني: ترك الإحسان وترك الإساءة، فإن ذلك داخل في العقوق، فلا يسع الولد أن يقول إذا قمت بواجب والدي وتركت معصيتهما فقد قمت بحقهما، فيقال بل عليك أن تبذل لهما من الإحسان الذي تقدر عليه ما يجعلك في مرتبة الأبرار البارين بوالديهم، وقوله: ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ بيان لبعض الأسباب الموجبة للبر، وأن الوالدين اشتركا في تربية بدنك وروحك بالتغذية والكسوة والحضانة والقيام بكل المؤن وبالتعليم والإرشاد والإلزام بطاعة الله والآداب والأخلاق الجميلة، وفي هذا دليل على أن كل من له عليك حق تربية بقيام بمؤنة نفقة وكسوة وغيرها أن له حقًّا عليك بالإحسان والبر والدعاء وأعلى من ذلك من له حق عليك بتربية عقلك وروحك تربية

علمية تهذيبية أن له الحق الأكبر عليك، وهذا من جملة فضائل أهل العلم المعلمين العاملين ومن حقوقهم على الناس، فإنهم ربما فاقوا في هذه التربية تربية الوالدين بأضعاف مضاعفة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وقوله: ﴿وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي أحسنوا إلى أقاربكم القريب منهم والبعيد بالقول والفعل، وأوصلوا لهم من الهدايا والصدقات والبر والإحسان المتنوع ما يشرح صدورهم وتتيسر به أمورهم، وتكونوا بذلك واصلين وللأجر من الله حائزين.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، فمن رحمة أرحم الراحمين أمر الناس برحمتهم والحنو عليهم والإحسان إليهم وكفالتهم وجبر خواطرهم وتأديبهم، وأن يربوهم أحسن تربية كما يربون أولادهم، سواء كان اليتيم ذكرًا أو أنثى، قريبًا أو غير قريب.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر فلم يحصلوا على كفايتهم ولا كفاية من يمونون فأمر تعالى بسد خلتهم، ودفع فاقتهم، والحض على ذلك، وقيام العبد بما أمكنه من ذلك من غير ضرر عليه ﴿وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي الجار القريب الذي له حق الجوار وحق القرابة ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ الذي ليس بقريب، فعلى العبد القيام بحق جاره مطلقا، مسلما كان أو كافرًا، قريبًا أو بعيدًا، بكف أذاه عنه، وتحمل أذاه، وبذل ما يهون عليه ويستطيعه من الإحسان، وتمكينه من الانتفاع بجداره أو طريق ماء على وجه لا يضر الجار، وتقديم الإحسان إليه على الإحسان على من ليس بجار، وكلما كان الجار أقرب بابًا كان آكد لحقه، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالصدقة والهدية والدعوة واللطافة بالأقوال والأفعال تقربًا إلى الله وإحسانًا إلى أخيه صاحب الحق.

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ قيل هو الرفيق في السفر، وقيل هو الزوجة، وقيل هو الرفيق مطلقًا في الحضر والسفر، وهذا أشمل فإنه يشمل القولين الأولين، فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له والوفاء معه في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وأن يحب له ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه وكلما زادت الصحبة تأكد الحق وزاد.

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو الغريب في غير بلده سواء كان محتاجًا أو غير محتاج، فحث الله على الإحسان إلى الغرباء لكونهم في مظنة الوحشة والحاجة وتعذر ما يتمكنون عليه في أوطانهم فيتصدق على محتاجهم ويجبر خاطر غير المحتاج بالإكرام والهدية والدعوة والمعاونة على سفر ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ أي من الرقيق والبهائم بالقيام بكفايتهم وأن لا يحملوا ما لا يطيقون، وأن يعاونوا على مهماتهم، وأن يقام بتقويمهم وتأديبهم النافع فمن قام بهذه المأمورات فهو الخاضع لربه المتواضع لعباد الله المنقاد لأمر الله وشرعه الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل، ومن لم يقم بذلك فإنه عبد معرض عن ربه، عات على الله، متكبر على عباد الله معجب بنفسه، فخور بأقواله على وجه الكبر والعجب واحتقار الخلق، وهو في الحقيقة السافل المحتقر؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ فهؤلاء ما بهم من الأوصاف القبيحة تحملهم على البخل بالحقوق الواجبة ويأمرون الناس بأقوالهم وأفعالهم بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله أي من العلم الذي يهتدي به الضالون ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم ويظهرون

لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق فهؤلاء جمعوا بين البخل بالمال والبخل بالعلم وبين السعي في خسارة أنفسهم، والسعي في خسارة غيرهم، وهذه هي صفات الكافرين؛ ولهذا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧] أي كما استهانوا بالحق وتكبروا على الخلق واستهانوا بالقيام بالحقوق أهانهم اللَّه بالعذاب الأليم والخزي الدائم.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] أي احذر هذين الخلقين الرذيلين: البخل بالواجبات في بذل المال فيما ينبغي بذله فيه، والتبذير لنفقة فيما لا ينبغي أو زيادة على ما ينبغي ﴿فَتَقْعُدَ﴾ إن فعلت ذلك ﴿مَلُومًا﴾ أي: تلام على ما فعلت من الإسراف لأن كل عاقل يعرف أن الإسراف مناف للعقل الصحيح كما أنه مناف للشرع؛ فإنه جعل الأموال قيامًا لمصالح الخلق، فكما أن منعها وإمساكها عن وضعها فيما جعلت له مذموم، فكذلك بذلها في الأمور الضارة أو الزيادة غير اللائقة في الأمور العادية وغيرها مذموم؛ لأنه إتلاف للمال بغير مصلحة وانحراف في حسن التصرف والتدبير، وضعف التدبير وعدم انتظامه مذموم في كل شيء كما أن حسن التدبير محمود ونافع لفاعله ولغيره ﴿مَّحْسُورًا﴾ أي فارغ اليد فلا بقي ما في يدك من المال، ولا خلفه مدح وثناء.

وهذا الأمر بإيتاء ذي القربى وغيرهم مع القدرة، فأما مع العدم أو تعذر النفقة الحاضرة، فأمر تعالى أن يردوا ردًّا جميلًا فقال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ [الإسراء: ٢٨]، أي تعرضن عن إعطائهم حاضرًا ولكنك ترجو فيما بعد ذلك تيسير الأمر من اللَّه فقل

لهم قولًا ميسورًا أي لطيفًا برفق ووعد بالجميل عند الوجود، واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر لينقلبوا عنك مطمئنة قلوبهم، عاذرين راجين كما قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣] وهذا من لطف اللَّه بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه؛ لأن انتظار ذلك عبادة، وسبب لحصوله؛ فإن اللَّه عند ظن عبده به، وكذلك وعدهم أن يعطوهم إذا وجدوا عبادة حاضرة لمن وعدوا لأن الهم بفعل الخير والحسنة خير، ولهذا ينبغي للعبد أن يفعل ما يقدر عليه من الخير وينوي فعل ما لم يقدر عليه إذا قدر ليثاب على ذلك، ولعل اللَّه ييسره له.

وفي قوله: ﴿ابْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ فيه الحث على تعليق القلب والرجاء والطمع باللَّه وصرف التعلق بالمخلوقين، فالموفق في حال الوجود والغنى قلبه متعلق بحمد اللَّه وشكره والثناء عليه لا ينثني ولا يبطر النعمة وفي حال الفقد والفقر صابر راض راج من اللَّه فضله وخيره ورحمته، وهذا من أجل عبادات القلوب المقربة إلى علام الغيوب.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] وذلك أن اللَّه أرحم بعباده من الوالدة بولدها فنهى الوالدين عن هذا الخلق الذي هو من أرذل الأخلاق وأسقطها قتل أولادهم خشية من الفقر والإملاق ففيه عدة جنايات: قتل النفس الذي هو من أعظم الفساد، وأشنع من ذلك قتل الأولاد الذين هم فلذ الأكباد وسوء الظن برب العالمين، وجهلهم وضلالهم البليغ؛ إذ ظنوا أن وجودهم يضيق عليهم الأرزاق، فتكفل لهم بقيامه برزق الجميع، فأين هذا الخلق الشنيع من أخلاق خواص

المؤمنين الذين كلما كثرت أولادهم وعوائلهم قوي ظنهم بالله ورجوا زيادة فضله وقاموا بمؤنتهم مطمئنة نفوسهم، حامدين ربهم أن جعل رزقهم على أيديهم، ومثنين على ربهم إذ أقدرهم على ذلك، وراجين ثواب ذلك عنده، ومشاهدين لمنة الله عليهم بذلك، قال ﷺ: «**هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم ورغبتهم إلى الله**»[1].

والنهي عن قربان الزنا يشمل النهي عنه وعن جميع دواعيه ومقدماته، كالنظر المحرم، والخلوة بالأجنبية، وخطاب من يخشى الفتنة بخطابه ونحو ذلك، ووصف الزنا بأقبح الأوصاف، بأنه فاحشة، أي جريمة عظيمة تستفحش شرعًا وعقلًا؛ لأن فيه انتهاك حرمة الشرع والتهاون به وفيه إفساد المرأة وإفساد الأنساب واختلاط المياه، وفيه إضرار بأهلها وبزوجها وبكل من يتصل بها، وفيه من المفاسد شيء كثير.

وأمر تعالى بإيفاء المكاييل والموازين والمعاملات كلها بالقسط من غير بخس ولا نقص ولا غش ولا كتمان، وفي ضمن ذلك الأمر بالصدق والنصح في جميع المعاملات؛ فإنه بذلك يصلح الدين والدنيا ولذلك قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥] أي هو خير في الحاضر وأحسن عاقبة في الأجل يسلم به العبد من التبعات، وتحل البركة في هذه المعاملة.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] أي ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبت في كل ما تقوله وتفعله؛ فإن التثبت في الأمور كلها دليل على حسن الرأي وقوة العقل، وبه تتوضح الأمور

(١) رواه البخاري عن سعد بدون ذكر (بدعائهم ورغبتهم إلى الله).

ويعرف بعد ذلك هل الإقدام خير أم الإحجام؛ لأن المتثبت لابد أن يعمل فكره ويشاور في الأمور التي عليه أن يتثبت فيها، والفكر والمشاورة أكبر الأسباب لإصابة الصواب والسلامة من التبعة ومن الندم الصادر من العجلة ومن عدم استدراك الفارط؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] أي لابد أن تسأل عن حركة هذه الجوارح وهل هي حركات نافعة بأن وضعت فيما يقرب إلى اللَّه، أم ضارة بأن وجهت لمعصية اللَّه، فليتعاهد العبد بحفظها عن الأمور الضارة ليعد لهذا السؤال جوابًا، فمن استعملها بطاعة اللَّه فقد زكاها ونماها وأثمرت له النعيم المقيم، ومن استعملها في ضد ذلك فقد دساها وأسقطها وأوصلته إلى العذاب الأليم.

وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧] أي لا تتكبر على الحق ولا على الخلق؛ فإن التكبر من أرذل الأخلاق، والمتكبر المعجب بنفسه لن يبلغ ما يظنه وتطمح له نفسه من الخيالات الفاسدة أنه في مقام رفيع على الخلق، بل هو ممقوت عند اللَّه وعند خلقه، مبغوض محتقر قد نزل بخلقه هذا إلى أسفل سافلين، ففاته مطلوبه من كبره وعجبه، وحصل على نقيضه، ومن مضار الكبر أنه صح الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر**»[١]، والنار مثوى المتكبرين، والكبر هو بطر الحق، وغمط الناس، أي احتقارهم وازدراؤهم، وهذه الأوامر الحسنة والإرشادات في هذه الآيات من الحكمة العالية التي أوحاها اللَّه لرسوله ﷺ وهي من أعظم محاسن

---

(١) رواه مسلم عن عبد اللَّه بن مسعود.

الدين، فالدين هو دين الحكمة التي هي معرفة الصواب والعمل بالصواب ومعرفة الحق والعمل بالحق في كل شيء.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر السورة.

العبودية للَّه نوعان: عبودية لربوبية اللَّه وملكه، فهذه يشترك فيها سائر الخلق مسلمهم وكافرهم، فكلهم عبيد للَّه مربوبون مدبرون، وعبودية لألوهيته ورحمته، وهي عبودية أنبيائه وأوليائه، وهي المراد هنا؛ ولهذا أضافها إلى اسمه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تنبيها على أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال برحمته بهم ولطفه وإحسانه، فذكر صفاتهم أكمل الصفات، وبالاتصاف بها يكون العبد متحققًا بعبوديته الخاصة النافعة المثمرة للسعادة الأبدية، فوصفهم بأنهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي ساكنين متواضعين للَّه وللخلق، فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة والتواضع للَّه ولعباده ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي خطاب جهل، فإنه أضاف الخطاب لهذا الوصف ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي خاطبوهم خطابًا يسلمون فيه من الإثم ولا يقابلون الجاهل بجهله، وهذا ثناء عليهم بالرزانة والحلم العظيم والعفو عن الجاهل ومقابلة المسيء بالإحسان.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤] أي يكثرون من صلاة الليل مخلصين فيها لربهم متذللين له كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]. ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: ٦٥] أي: ادفعه عنا بالعصمة من أسبابه ومغفرة ما وقع منا مما هو مقتض للعذاب ﴿إِنَّ

عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] أي ملازما لأهلها ملازمة الغريم لغريمه ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦] وهذا منهم على وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه، وأنه ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب وليتذكروا منة الله عليهم؛ فإن صرف الشدة يعظم وقعه بحسب شدتها وفظاعتها.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا﴾ [الفرقان: ٦٦] أي النفقات الواجبة والمستحبة ﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾ أي يزيدوا على الحد فيدخلوا في قسم التبذير وإهمال الحقوق الواجبة، ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ فيدخلوا في باب الشح والبخل، وكان إنفاقهم بين الإسراف والتقتير ﴿قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] تقوم به الأحوال؛ فإنهم يبذلون في الواجبات من الزكاوات والكفارات والنفقات الواجبة، وفيما ينبغي من الأمور النافعة على المحتاجين، وفي المشاريع الخيرية، وفي الأمور الضرورية والكمالية الدينية والدنيوية من غير ضرر ولا إضرار، وهذا من اقتصادهم وعقلهم وحسن تدبيرهم.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨] لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة بل يعبدونه وحده مخلصين له الدين حنفاء مقبلين عليه معرضين عما سواه ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [الفرقان: ٦٨] وهي نفس المسلم والكافر المعاهد ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨] كقتل النفس بالنفس والزاني المحصن والتارك لدينه المفارق للجماعة ﴿وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ٦٨] المذكور من الشرك بالله وقتل النفس التي حرم الله والزنا ﴿يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩] أي العذاب ﴿مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٩].

فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلها ثابت في الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وكذلك لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة؛ لكونها كلها من أكبر الكبائر، وأما خلود القاتل بغير حق والزاني في العذاب، فقد دلت النصوص القرآنية وتواترت الأحاديث النبوية أن جميع المؤمنين- وإن دخلوا النار- فسيخرجون منها ولا يخلد فيها مؤمن؛ فإن الإيمان الكامل يمنع من دخولها، ومطلق الإيمان ولو مثقال ذرة يمنع من الخلود فيها كما تقدم.

ونص الله على هذه الأشياء الثلاثة لأنها أكبر الكبائر، وفسادها كبير، فالشرك فيه فساد الأديان بالكلية، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عن هذه المعاصي وغيرها بأن أقلع عنها في الحال، وندم على فعلها وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود ﴿وَءَامَنَ﴾ بالله إيمانا صحيحا يقتضي فعل الواجبات، وترك المحرمات ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠] فيدخل فيه جميع الصالحات من واجب ومستحب ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٧٠] بأن يوفقهم للخير، فتبدل أقوالهم وأفعالهم التي كانت مستعدة لفعل السيئات تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيمانا ومعصيتهم طاعة، وتتبدل نفس السيئات التي عملوها، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وندمًا وإنابة وطاعة تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية، وورد فيه حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه، فعددها عليه، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة إلى آخر الحديث ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ [الفرقان: ٧٠] لمن تاب يغفر ذنوبه كلها ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده إذ دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته

بالعظائم، ثم وفقهم لها ثم قبلها منهم ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ أي فليعلم أن توبته في غاية الكمال؛ لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه، فليخلص فيها وليخلصها من شوائب الأغراض الفاسدة.

والمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة، وأن تكون على أكمل الوجوه وأجلها لتحصل له ثمراتها الجليلة ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ﴾ [الفرقان: ٧٢] أي لا يحضرون ﴿ٱلزُّورَ﴾ أي القول المحرم والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على كل قول وفعل محرم، كالخوض في آيات الله بالباطل، والجدل بالباطل، والغيبة والنميمة، والسب والقذف، والاستهزاء وشرب الخمر، والغناء المحرم، وفرش الحرير والصور ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور فإنهم من باب أولى لا يفعلونه ولا يقولونه وشهادة الزور داخلة في قول الزور ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾ [الفرقان: ٧٢] وهو الكلام الذي لا فائدة فيه دينية ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم ﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] أي نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه ورأوه سفهًا منافيا لمكارم الأخلاق.

وفي قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾ [الفرقان: ٧٢] إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن يحصل ذلك بغير قصد، فيكرمون أنفسهم عنه ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الفرقان: ٧٣] التي أمروا بالاستماع لها والاهتداء بها ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] أي لم يقابلوها بالإعراض عنها والصمم عن سماعها وصرف القلب عنها كما يفعله من لم يؤمن بها ويصدق، وإنما حال هؤلاء الأخيار عند

سماعها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩﴾ [السجدة: ١٥] يقابلونها بالقبول والافتقار إليها والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم آذانا سامعة، وقلوبًا واعية، فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها يقينهم، وتحدث لهم فرحًا ونشاطًا واغتباطًا، لما يعلمون أنها أفضل المنن الواصلة إليهم من ربهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الفرقان: ٧٤] أي قرنائنا من أصحاب وأخلاء وأقران وزوجات ﴿وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤] أي: تقر بهم أعيننا، وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم عرفنا من علو هممهم ومراتبهم أن مقصودهم بهذا الدعاء لذرياتهم أن يطلبوا منه صلاحهم؛ فإن صلاح الذرية عائد إليهم وإلى والديهم لأن النفع يعود على الجميع، بل صلاحهم يعود إلى نفع المسلمين عمومًا؛ لأن بصلاح المذكورين صلاحًا لكل من تعلق بهم.

ثم يتسلسل الصلاح والخير ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] أي أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية درجة الصديقين والكمل من عباد اللَّه الصالحين، وهي درجة الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم، يقتدى بأقوالهم وأفعالهم، ويُطمأن إليها لثقة المتقين بعلمهم ودينهم، ويهتدي المهتدون بهم، ومن المعلوم أن الدعاء بحصول شيء دعاء به وبما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة درجة الإمامة في الدين لا تتم إلا بالصبر واليقين.

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فهذا الدعاء يستلزم من حصول

الأعمال الصالحة والصبر على طاعة اللّه وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة ومن العلم النافع التام الراسخ الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين خيرًا كثيرًا وعطاء جزيلا، ولما كانت هممهم وأعمالهم عالية كان الجزاء من جنس العمل، فجازاهم من جنس عملهم فقال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: ٧٥] أي المنازل العالية الرفيعة الجامعة لكل نعيم روحي وبدني بسبب صبرهم على القيام بهذه الأعمال الجليلة ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥] من ربهم ومن الملائكة الكرام ومن بعضهم على بعض ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات.

والحاصل أن اللّه وصفهم بالوقار والسكينة والتواضع له ولعباده وحسن الأدب والحلم وسعة الخلق والعفو عن الجاهلين والإعراض عنهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان وقيام الليل والإخلاص فيه والخوف من النار والتضرع لربهم أن ينجيهم منها وأنهم يخرجون الواجبات والمستحبات في النفقات على وجه الاقتصاد، وإذا كانوا مقتصدين في النفقات التي جرت عادة أكثر الخلق بالتفريط فيها أو الإفراط، فاقتصادهم وتوسطهم في غيرها من باب أولى، ووصفهم بالسلامة من كبائر الذنوب وفواحشها، وبالتوبة مما يصدر منهم منها.

ومنها: الإخلاص للّه في عبادته، وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية ولا يفعلونها، وأنهم يتنزهون عن اللغو والأقوال الرديئة التي لا خير فيها ولا نفع، وذلك يستلزم كمال إنسانيتهم ومروءتهم وكمالهم ورفعة نفوسهم عن كل أمر رذيل، وأنهم يقابلون آيات اللّه بالقبول لها والتفهم لمعانيها والعمل بها والاجتهاد في

تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون ربهم بأكمل دعاء ينتفعون به، وينتفع به من يتعلق بهم، وينتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم، ومن لوازم ذلك، سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصحهم؛ لأن من حرص على شيء ودعا اللَّه في حصوله لابد أن يكون مجتهدًا في تحصيله بكل طريق، مستعينا بربه في تسهيل ذلك، وأنهم دعوا اللَّه في حصول أعلى الدرجات الممكنة لهم، وهي درجة الإمامة والصديقية.

فللَّه ما أعلى هذه الصفات وأرفع هذه الهمم وأجل هذه المطالب وأزكى تلك النفوس، وللَّه فضل اللَّه عليهم ولطفه بهم الذي أوصلهم إلى هذه المقامات والمنازل، وللَّه الحمد من جميع عباده إذ بين لهم أوصافهم وحثهم عليها وأعان السالكين ويسر الطريق لمن سلك رضوانه. واللَّه الموفق المعين.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

هذه الآية الكريمة جامعة لمعاني حسن الخلق مع الناس وما ينبغي للعبد سلوكه في معاملتهم ومعاشرتهم، فأمر تعالى بأخذ العفو وهو ما سمحت به أنفسهم وسهلت به أخلاقهم من الأعمال والأخلاق، بل يقبل ما سهل ولا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم ولا ما لا يطيقونه، بل عليه أن يشكر من كل أحد ما قابله به من قول وعمل وخلق جميل وما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، وعما أتوا به وعاملوه به من النقص ولا يتكبر على صغير لصغره ولا ناقص العقل لنقصه ولا الفقير لفقره بل يعامل الجميع باللطف وما تقتضيه

الحال الحاضرة، وبما تنشرح له صدورهم ويوقر الكبير ويحنو على الصغير ويجامل النظير.

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ وهو كل قول حسن وفعل جميل وخلق كامل للقريب والبعيد فاجعل ما يأتي إلى الناس منك إما تعليم علم ديني أو دنيوي أو نصيحة أو حث لهم على خير من عبادة اللَّه وصلة رحم وبر الوالدين، وإصلاح بين الناس أو رأي مصيب أو معاونة على بر وتقوى أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى مصلحة دينية أو دنيوية، أو تحذير من ضد ذلك.

ولما كان لابد للعبد من أذية الجاهلين له بالقول أو بالفعل أمر اللَّه بالإعراض عنهم وعدم مقابلة الجاهلين بجهلهم، فمن آذاك بقوله أو فعله فلا تؤذه، ومن حرمك فلا تحرمه، ومن قطعك فصله، ومن ظلمك فاعدل فيه فبذلك يحصل لك من الثواب من اللَّه، ومن راحة القلب وسكونه ومن السلامة من الجاهلين، ومن انقلاب العدو صديقًا، ومن التبوء من مكارم الأخلاق أعلاها أكبر حظ وأوفر نصيب، قال تعالى ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥] ولنقتصر في هذا الموضوع على هذه الآيات، ففيها الهدى والشفاء والخير كله.

* * *

## فصل

# في أحكام الشرع الفروعية المتنوعة في الصلاة والزكاة مع ما ينضم إليهما من المعاني الأخرى

قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٨، ٧٩].

هذا الأمر من الله لعباده بالصلاة التي أمر بها في آيات متعددة، ويأتي الأمر بها في القرآن بلفظ الإقامة كهذه الآية، ومثل: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ونحوها. وهو أبلغ من قوله افعلوها؛ فإن هذا أمر بفعلها، وبتكميل أركانها وشروطها ومكملاتها ظاهرًا وباطنًا، ويجعلها شريعة ظاهرة قائمة من أعظم شعائر الدين، وفي هذه الآية زيادة عن بقية الآيات، وهي الأمر بها لأوقاتها الخمسة أو الثلاثة، وهذه هي الفرائض وإضافتها إلى أوقاتها من باب إضافة الشيء إلى سببه الموجب له.

« فدلوك الشمس » أي زوالها واندفاعها من المشرق نحو المغرب، فيدخل في هذا صلاة الظهر وهو أول الدلوك، وصلاة العصر وهو آخر الدلوك ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ أي ظلمته فدخل في ذلك صلاة المغرب وهو ابتداء الغسق، وصلاة العشاء الآخرة، وبها يتم الغسق والظلمة ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي صلاة الفجر، وسماها قرآنا؛ لمشروعية إطالة القراءة فيها، ولفضل قراءتها لكونها مشهودة يشهدها الله وتشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، ففي هذه الآية الكريمة فوائد:

منها: ذكر الأوقات الخمسة صريحًا، ولم يصرح بها في القرآن في غير هذه الآية، وأتت ظاهرة في قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]. **وفيها**: أن هذه المأمورات كلها فرائض؛ لأن الأمر بها مقيد في أوقاتها، وهذه هي الصلوات الخمس وقد تستتبع ما يتبعها من الرواتب ونحوها.

**ومنها**: أن الوقت شرط لصحة الصلاة وسبب لوجوبها، ويرجع في مقادير الأوقات إلى تقدير النبي ﷺ كما يرجع إليه في تقدير ركعات الصلاة وسجداتها وهيئاتها.

**وفيها**: أن العصر والظهر يجمعان للعذر، وكذلك المغرب والعشاء؛ لأن اللَّه جمع وقتهما فهو وقت واحد للمعذور، ووقتان لغير المعذور.

وفيها: فضيلة صلاة الفجر وفضيلة إطالة القرآن فيها، وأن القراءة فيها ركن؛ لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها دل ذلك على فضيلته وركنيته، وقد عبر اللَّه عن الصلاة بالقراءة وبالركوع وبالسجود وبالقيام، وهذه كلها أركانها المهمة.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ أي صل به في أوقاته ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو المقامات ورفع الدرجات بخلاف غيرك؛ فإنها تكون كفارة لسيئاته.

ويحتمل أن يكون المعنى أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين، وأما صلاة الليل فإنها فرض عليك وحدك دون المؤمنين لكرامتك على اللَّه، إذ جعل وظيفتك أكثر من غيرك ومنَّ عليك بالقيام بها ليكثر ثوابك ويرتفع مقامك، وتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام

الذي يحمده فيه الأولون والآخرون مقام الشفاعة العظمى، حين يستشفع الخلائق بأكبر الأنبياء، آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم ليرحمهم الله من هم الموقف وكربه ويفصل بينهم، فيشفعه الله ويقيمه مقامًا يغبطه به الأولون والآخرون، وتكون له اليد البيضاء على جميع الخلق ﷺ تسليما كثيرا وأدخلنا في شفاعته، ومنَّ علينا بالسعي في أسباب شفاعته التي أهمها إخلاص الأعمال للّه، وتحقيق متابعته في هديه وقوله وعمله.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨].

لما أمر اللّه تعالى رسوله خصوصًا والمؤمنين عمومًا باستقبال بيته الحرام أخبر أن كل أهل دين لهم وجهة يتوجهون إليها في عباداتهم، وليس الشأن في القبل و الوجهات المعينة، فإنها من الشرائع التي تختلف باختلاف الأزمنة، ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى أخرى، ولكن الشأن كل الشأن في امتثال طاعة اللّه على الإطلاق والتقرب إليه وطلب الزلفى عنده.

فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذي إذا لم تتصف به النفوس حصلت لها الخسارة في الدنيا والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به فهي الرابحة على الحقيقة، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق اللّه له الخلق وأمرهم به، والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعلها؛ فإن الاستباق إليها يتضمن الأمر بفعلها

وتكميلها وإيقاعها على أكمل الأحوال والمبادرة إليها، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات فهو السابق في الآخرة إلى الجنات فالسابقون أعلى الخلق درجة، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل من صلاة وصيام وزكاة وصدقة وحج وعمرة وجهاد ونفع متعد وقاصر، فهذه الآية تحث على الإتيان بكل ما يكمل هذه العبادات من ركن وواجب وشرط ومستحب ومكمل ومتمم ظاهرًا وباطنا كالمبادرة في أول الوقت وفعل السنن المكملات والمبادرة إلى إبراء الذمم من الواجبات وفعل جميع الآداب المتعلقة بالعبادات فللَّه ما أجمعها من آية وأنفعها.

ولما كان أقوى ما يحث النفوس إلى المسارعة إلى الخيرات ما رتب اللَّه عليها من الثواب، وما يخشى بتفويتها من الحرمان والعقاب قال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيجمع اللَّه العباد يوم القيامة بقدرته ويجازيهم بما أسلفوه من الأعمال خيرها وشرها.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩].

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات عمومًا، وعلى الصلاة الوسطى وهي صلاة العصر خصوصًا؛ لفضلها وشرفها وحضور ملائكة الليل والنهار فيها، ولكونها ختام النهار، والمحافظة على الصلوات عناية العبد بها من جميع الوجوه التي أمر الشارع بها وحث عليها من مراعاة الوقت وصلاة الجماعة والقيام بكل ما به تكمل وتتم، وأن تكون صلاة كاملة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، ويزداد بها إيمانه، وذلك إذا حصل فيها حضور القلب وخشوعه الذي هو لبها وروحها،

ولهذا قال: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ أي مخلصين خاشعين لله؛ فإن القنوت هو دوام الطاعة مع الخشوع، ومن تمام ذلك سكون الأعضاء عن كل كلام لا تعلق له بالصلاة.

**وفيها**: أن القيام في صلاة الفريضة ركن إن كان المراد بالقيام هنا الوقوف، فإن أريد به القيام بأفعال الصلاة عمومًا دل على الأمر بإقامتها كلها وأن تكون قائمة تامة غير ناقصة.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي فصلوا الصلاة رجالًا أي ماشين على أرجلكم أو ساعين عليها، أو ركبانًا على الإبل وغيرها من المركوبات، وحذف المتعلق ليعم الخوف من العدو والسبع ومن فوات ما يتضرر بفواته أو تفويته، وفي هذه الحال لا يلزمه استقبال القبلة، بل قبلته حيثما كان وجهه.

ومثل ذلك إذا اشتبهت القبلة في السفر، ومثل ذلك صلاة النافلة في السفر على الراحلة، وكل هذا داخل في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥] فهذه صلاة المعذور بالخوف، فإذا حصل الأمن صلى صلاة كاملة، ويدخل في قوله: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٣٩] تكميل الصلوات، ويدخل فيه أيضًا الإكثار من ذكر الله شكرًا له على نعمة الأمن وعلى نعمة التعليم، وفي الآية الكريمة فضيلة العلم وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم الإكثار من ذكر الله وفيه تنبيه على أن الإكثار من ذكر الله سبب لنيل علوم أخر لم يكن العبد ليعرفها، فإن الشكر مقرون بالمزيد، وقد ذكر الله صلاة الخوف في سورة النساء في قوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ

فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٢] فأمر بها على تلك الصفة تحصيلًا للجماعة لها وقيامًا للألفة وجمعًا بين القيام بالصلاة والجهاد حسب الإمكان وبالقيام بالواجبات مع التحرز من شرور الأعداء، فسبحان من جعل في كتابه الهدى والنور والرشاد وإصلاح الأمور كلها.

* * *

## فصل

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١١٠] وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ١٠٣] وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧] وقال: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١].

قد جمع اللَّه في كتابه في آيات كثيرة بين الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة لأنهما مشتركتان في أنهما من أهم فروض الدين ومباني الإسلام العظيمة، والإيمان لا يتم إلا بهما، ومن قام بالصلاة وبالزكاة كان مقيمًا لدينه، ومن ضيعهما كان لما سواهما من دينه أضيع فالصلاة فيها الإخلاص التام للمعبود وهي ميزان الإيمان.

والزكاة فيها الإحسان إلى المخلوقين وهي برهان الإيمان؛ ولهذا اتفق الصحابة على قتال مانعي الزكاة، وقال أبو بكر رضي اللَّه عنه «لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة» فقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ هذا الأمر موجه للنبي ﷺ ومن قام مقامه أن يأخذ من أموال المسلمين صدقة وهي الزكاة، وهذا شامل لجميع الأموال المتمولة من أنعام وحروث ونقود وعروض كما صرح به في الآية الأخرى ﴿مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ من النقود والعروض والماشية المنماة ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ من الحبوب والثمار، وقد وضح النبي ﷺ النصب في هذه

الأنواع كلها، وبين مقدار الواجب منها وأنها عشر الخارج من الأرض ما يسقى بلا مؤنة، ونصف عشره فيما سقي بمؤنة، وربع العشر من أموال التجارة وذلك إذا حال الحول في أموال التجارة، وحصل الحصاد والجذاذ وقت حصول الثمار كما هو صريح الآية المذكورة.

وأمر تعالى بإخراج الوسط فلا يظلم رب المال فيؤخذ العالي من ماله إلا أن يختار هو ذلك ولا يحل له أن يتيمم الخبيث وهو الرديء من ماله فيخرجه، ولا تبرأ بذلك ذمته إن كانت فرضًا، ولا يتم له الأجر والثواب إن كانت نفلا، وبين تعالى الحكمة في ذلك وأنها حكمة معقولة، فكما أنكم لا ترضون ممن عليه حق لكم أن يعطيكم الرديء من ماله الذي هو دون حقكم إلا أن تقبلوه على وجه الكراهة والإغماض فكيف ترضون لربكم ولإخوانكم ما لا ترضونه لأنفسكم فليس هذا من الإنصاف والعدل.

وبين تعالى الحكمة في الزكاة وبيان مصالحها العظيمة فقال: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ فهذه كلمة جامعة يدخل فيها من المنافع للمعطي والمعطى والمال والأمور العمومية والخصوصية شيء كثير. فقوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ أي من الذنوب ومن الأخلاق الرذيلة، فإن من أعظم الذنوب وأكبرها منع الزكاة، وأيضا إعطاؤها سبب لمغفرة ذنوب أخرى فإنها من أكبر الحسنات، والحسنات يذهبن السيئات.

ومن أشنع الأخلاق الرذيلة البخل، والزكاة تطهره من هذا الخلق الرذيل، ويتصف صاحبها بالرحمة والإحسان والشفقة على الخلق وتطهر المال من الأوساخ والآفات، فإن للأموال آفات مثل آفات الأبدان،

وأعظم آفاتها أن تخالطها الأموال المحرمة، فهي للأموال مثل الجرب تسحته وتحل به النكبات والنوائب المزعجة، فإخراج الزكاة تطهير له من هذه الآفة المانعة له من البركة والنماء، فيستعد بذلك للنماء والبركة وتوجيهه للأمور النافعة، وأما قوله: ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ فالزكاة هي النماء والزيادة، فهي تنمي المؤتي للزكاة، تنمي أخلاقه وتحل البركة في أعماله ويزداد بالزكاة ترقيا في مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وتنمي المال بزوال ما به ضرره وحصول ما فيه خيره وتحل فيه البركة من الله؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال**»[1] بل تزيده وتنمي أيضا المخرج إليه فتسد حاجته، وتقوم المصلحة الدينية التي تصرف فيها الزكاة كالجهاد والعلم والإصلاح بين الناس والتأليف ونحوها، وأيضا تدفع عادية الفقر والفقراء، فإن أرباب الأموال إذا احتكروها واحتجزوها ولم يؤدوا منها شيئا للفقراء اضطر الفقراء وهم جمهور الخلق وثاروا بالشر والفساد على أرباب الأموال، وبهذا ونحوه تسلطت البلاشفة على الخلق، فالقيام بالدين الإسلامي على وجهه بعقائده وحقائقه وأخلاقه وأداء حقوقه هو السد المانع شرعًا وقدرًا لهذه الطائفة التي بها فساد الأديان والدنيا والآخرة، وأمر تعالى الآخذ منهم الزكاة أن يصلي عليهم فيدعو لهم بالبركة، فإن في ذلك طمأنة لخواطرهم وتسكينا لقلوبهم وتنشيطا لهم وتشجيعا على هذا العمل الفاضل، وكما أن الإمام والساعي مأمور بالدعاء للمزكي عند أخذها فالفقير المحتاج إذا أعطيها من باب أولى أن يشرع له الدعاء للمعطي تسكينًا لقلبه، وفي هذا إعانة على الخير.

---

(١) رواه مسلم «عن أبي هريرة».

ودل تعليل الآية الكريمة أن كل ما أعان على فعل الخير ونشط عليه وسكن قلب صاحبه أنه مطلوب ومحبوب للّه، وأنه ينبغي للعبد مراعاته وملاحظته في كل شأن من شئونه، فإن من تفطن له فتح له أبوابًا نافعة له ولغيره بلا تعب ولا مشقة، وأنه ينبغي إدخال السرور على المؤمنين.

ولما أمر في آية البقرة بالنفقات قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ غني بذاته عن جميع المخلوقين وهو الغني عن نفقات المنفقين وطاعات الطائعين، وإنما أمرهم بها وحثهم عليها لمحض مصلحتهم ونفعهم، وبمحض فضله وكرمه عليهم، إذ تفضل عليهم بالأمر بهذه الأعمال والتوفيق لفعلها التي توصل أصحابها إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات، ومع كمال غناه وسعة عطاياه فهو الحميد فيما يشرعه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام، وحميد في أفعاله التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة، وحميد الأوصاف لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات لا يدرك العباد كنهها ولا يقدرونها حق قدرها، فلما حثهم على الإنفاق النافع نهاهم عن الإمساك الضار، وبين لهم أنهم بين داعيين: داعي الرحمن يدعوهم إلى الخير ويعدهم عليه الفضل والثواب العاجل والآجل وخلف ما أنفقوا، وداعي الشيطان الذي يحثهم على الإمساك ويخوفهم إن أنفقوا افتقروا، فمن كان مجيبًا لداعي الرحمن وأنفق مما رزقه اللّه فليبشر بمغفرة الذنوب، وحصول كل مطلوب ومن كان مجيبًا لداعي الشيطان فإنه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، فليختر العبد أي الأمرين أليق به، وختم الآية بالإخبار بأنه ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الصفات كثير الهبات، عليم

بمن يستحق المضاعفة من العاملين المخلصين الصادقين، وعليم بمن هو أهل لذلك فيوفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات.

قال اللّه تعالى ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦٠﴾ [التوبة: ٦٠].

المراد بالصدقات هنا الزكاة، فهؤلاء الثمانية هم أهلها، إذا دفعت إلى جهة من هذه الجهات أجزأت ووقعت موقعها، وإن دفعت في غير هذه الجهات لم تجز، وهؤلاء المذكورون فيها قسمان قسم يأخذ لحاجته كالفقراء والمساكين والرقاب وابن السبيل والغارم لنفسه، وقسم يأخذ لنفعه العمومي والحاجة إليه، وهم البقية.

فأما الفقراء والمساكين فهم خلاف الأغنياء، والفقير أشد حاجة من المسكين لأن اللّه بدأ به، والأهم مقدم في الذكر غالبًا، ولكن الحاجة تجمع الصنفين ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ وهم السعاة الذين يجبونها ويكتبونها ويحفظونها، ويقسمونها على أهلها فهم يعطون ولو كانوا أغنياء لأنها بمنزلة الأجرة في حقهم ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ وهم سادات العشائر والرؤساء الذين إذا أعطوا حصل في إعطائهم مصلحة للإسلام والمسلمين، إما دفع شرهم عن المسلمين وإما رجاء إسلامهم وإسلام نظرائهم، أو جبايتها ممن لا يعطيها أو يرجى قوة إيمانهم ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي في فكها من الرق كإعانة المكاتبين وكبذلها في شراء الرقاب لعتقها وفي فك الأسارى من المسلمين عند الأعداء

﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ للإصلاح بين الناس إذا كان الصلح يتوقف على بذل مال فيعانون على القيام بهذه المهمة والمصلحة العظيمة وهي الإصلاح بين الناس ولو أغنياء، ومن الغارمين من ركبتهم ديون للناس وعجزوا عن وفائها فيعانون من الزكاة لوفائها ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي بذلها في إعانة المجاهدين بالزاد والمزاد والمركوب والسلاح ونحوها مما فيه إعانة المجاهدين، ومن الجهاد التخلي لطلب العلم الشرعي والتجرد للاشتغال به ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو الغريب المنقطع به في غير بلده فيعان على سفره من الزكاة.

فاللّٰه تعالى فرضها لهؤلاء الأصناف بحسب حكمته وعلمه ووضعه الأشياء مواضعها، فإن سد الكفايات وقيام المصالح العمومية النافعة من الفروض على المسلمين، وهي على أهل الأموال شكر منهم للّٰه تعالى على نعمته بالمال وتطهير لهم ولها ونماء وبركة واتصاف بصفات الأخيار، وسلامة من نعوت الأشرار.

* * *